اطيب الفكاهات

اطيب الفكاهات

في

اربع روايات

الفتاة المفقودة – ليلة الاهوال

الشهامة في حبّ الوطن – الشهامة في حبّ القريب

نُشرت في مجلّة المشرق

بيروت
بالمطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين
سنة ١٩٠١

الفتاة المفقودة

رواية تاريخيَّة عرَّبها بتصرُّف الاب لويس شيخو اليسوعي

١

كان الامير فرنسيس دي بومونت الشهير بارون دي أَدْراي (baron des Adrets) احد قوَّاد عصرهِ المبرَّزين ينتمي الى اسرة عريقـة في الشرف تقطن في بلاد دوفيناي من اعمال فرنسـة . وكان لهُ قصرٌ واسع الارجاء شاهق البنيان اشبه بقلعة حريزة ورثهُ من اجدادهِ يُدعى مُنسيغور (Monségur) اي الجبل المنيع

فلمَّا انتشبت في فرنسة الحروب المعروفة بالحروب الدينيَّة في أَواسط القرن السادس عشر بين الهوغنوت والكاثوليك عَهِد الاوَّلون قيـادة شرذمـة من جندهم الى البارون دي أَدْراي فكان ينقضّ بها كالنسر القشعم على المدن والقرى المجاورة فينهب ويسلب ويقتل ويحرق ثمَّ يعود غانمًا الى قصرهِ وهو فيهِ اعزّ من عقاب الجوّ في وكره . وكثيرًا ما سارت الجيوش الجرَّارة لمقاتلتهِ في حصنهِ بيد انها تعود بخُفَّي حنين لانَّ البارون كان قد ابتنى لهُ في اسفل حصنهِ نفقًا يمكّنهُ من الخروج من قلعتهِ فيراهُ اعداؤهُ في اعقابهم وهم يظنُّونهُ في قبضة يدهم يتضوَّر في حصنـهِ من

الجوع. وكان النفق المذكور مظلماً كثير الشِّعَب لا يعرفهُ غيرهُ مع المهندس الذي قام بصنعهِ وكان هـذا رجلًا ماهرًا في حرفة البناء بيد انهُ ابكم اخرس شديد التعلُّق بسيِّدهِ لا يفشي بسرِّهِ ولو ذاق الموت

ثمَّ تقلَّبت الاحوال على البارون دي أدراي ورجع الى دين آبائهِ . فنقم عليهِ الهوغنوت وحاولوا الانتقام منـهُ مرارًا فردَّهم خائبين. وفي بعض الغزوات تمكَّنوا من المهندس الاخرس وتهدَّدوهُ بالقتل ان لم يطلعهم على سرّ البناء ومدخل النفق ليسدُّوهُ ويتخلَّصوا من البارون صاحبهِ لكنَّ المهندس آثر الموت على الخيانة فقُتل وذهب شهيـدًا لامانتهِ في خدمة اميرهِ

٢

ثمَّ مات بعـد ذلك فرنسيس دي بومونت في ٢ شباط ١٥٨٦ دون ان يكشف بسرّهِ لاحد من اقاربهِ. امَّا القصر فانتقـل بالوراثة الى عائلة دي براكنتال وكانت تمتُّ بقرابةٍ الى أُسرة دي بومونت بينهما رحمٌ وشيجة وكانت السيدة دي براكنتال ارملةً منقطعة في قصرها الى اعمال البرّ وتربية ابنةٍ لها تُدعى لوسيًا وهي خريدة كاملة الصفات ذات فهم متوقّد وجمال بارع

فلمَّا كانت سنة ١٧١٥ خطب احد اشراف بلاد دوفيناي الفتـاة لوسيًا فاجابت أُمها الى طلبهِ وتمَّت حفلة الزفاف بعد ثلاثة اشهر بغاية ما يمكن من الأُبهة والفرح حضرها جلَّة القوم واعيان بلاد غرينوبل والمدن المجاورة. وأُقيمت الرتبة الدينيَّة في صبيحة ذلك النهار في كنيسة قريةٍ قريبة من القصر. ثمَّ خرج العريسان يحفُّ بهما عدد عديد من الاقارب والاحباب

فدارت كؤوس الافراح وعلت أصوات الطرب مدَّة ساعات طويلة الى ان شعرت الفتـاة بصداع خفيف فخرجت الى حديقة القصر لتتنسم الريح وحدها بمعزل عن القوم. لكنَّها وجدت الزوَّار في كلّ الانحـاء. فعنَّ لها ان تنزل الى دهليز كان في احدى زوايا الحديقة كان خدمُ القصر يلقون فيهِ الحطب وبعض اثاث الدار لفصل الشتاء. وهذا الدهليز كان عادةً مغطًى بالاعشاب وبعض العوارض من الخشب. فأزالت لوسيًا الاعشاب وانسلَّت بين العوارض الخشبيَّة دون ان يشاهدها احد

فبعد ساعةٍ حان وقت الغداء فقام الجميع ودخلوا ردهةً واسعة من ردهات القصر مزيَّنة بالنقوش الانيقة أُعدَّت فيها وليمة فاخرة لم يُقتصر فيها على شيء من اسباب الهناء. فلمَّا احتفـل المدعوُّون طلب العريسُ عروسَهُ ليقوما بشؤون المأدبة كمألوف عادة الاوربيين فلم يجدهـا. فسأل عنها فقيل لهُ انَّها خرجت منذ ساعةٍ الى حديقـة القصر وقد خرج الخدم الى استدعائهـا فلا تلبث ان ترجع. فانتظرها زوجها الى ان اضجرهُ الانتظار فخرج لينتهر الخدم ويبكّتهم على بطـاء حركاتهم. فاتوهُ للحال من كلّ أوب ووجوههم كاسفة يقولون: قد طلبنا سيدتنا في الحديقة بل في كلّ انحاء القصر فلم نجد لها اثرًا

— ما هذا القول؟ هلمُّوا بي فانَّها ولا مراء تحت شجرة من اشجار الحديقة ولعلَّها اضناها التعب فنامت

قال هذا وخرج اسرع من لمحة العين يدور في الجنينـة وينظر في كلّ انحائها فلم يجد احدًا. فسأل عنها الحضور فقيل لهُ انهم رأوها ثمَّ توارت عن عيانهم وراء دغل النبت ولم يعودوا ينظرونها

وكان المدعوُّون في اثنـاء ذلك ينتظرون العروسين فلمَّا فرغ صبرهم

خرجوا ليستطلعوا حقيقة الامر فرأوا العروس الجديد مع الخدم يركضون حيارى في كلّ جانب وهم ينشدون ضالّتهم الكريمة ويدعون لوسيّا باسمها . ولكن لم يُسمع لاصواتهم غير صدى الاودية المجاورة . فظنّوا انها دخلت احدى غرف القصر دون ان يُشعَر بها وانها تستريح في بعض المقاصير المنفردة فتفقّدوا القصر من اعلى طوابقهِ الى اسفلها فلم يجدوا لمطلوبهم اثرًا

فتبدّلت حينئذٍ الدنيا في اعين الجمهور ورنق كأس عيشهم وجعلوا يحدسون الاحداث المفجعة . وكانت امُّ الفتاة وزوجها في قلق لم يدركهُ وصف . ولمّا لم يجدا نتيجةً لتفتيشهما ترقرقت الدموع في عيونهما الى ان انصبّت كأنها المزن المدرار

وما زاد الام والاقارب حزنًا انّهم كانوا يعرفون للقصر مزلقةً متّصلة باحد جدرانهِ ليس بعيدًا عن الدهليز الذي سبق ذكرهُ . وكانت هذه المزلقة موشّاة بالزهور الطبيعيّة تنتهي الى حافة ضيّقة قليلة الارتفاع والحافة تعلو واديًا عميقًا في قعرهِ صخور ناتئة واشجار من السنديان والشربين . وما كان احد يقترب من المزلقة المذكورة الّا حَذِرًا متحرّزًا يتشبّث باغصان الشجر لئلا تزلج رجلهُ فيتدهور الى الوادي . ولم تكن الحافة السفلى لتقي الساقط اذا عثرت رجلهُ فبلغها بثقل جسمهِ بل كان لا محالة يفقد الموازنة وينكبت لوجههِ في الهوّة . فظنت الامّ المسكينة انّ ابنتها اتتْ هذا المكان فنامت بقربهِ وانّها في نومها جفلت فزحفت الى المزلقة فسقطت منها الى الهوّة

فما خطر هذا الفكر على بال السيدة دي براكتتال حتى تدفّقت من اجفانها العبرات وعلا صراخها فابكت كلّ من سمعها . ثمّ اسرع الخدم

فنزلوا الى اعماق الوادي فادركوهُ بعد دورة طويلة حول الجبل فبحثوا بحثًا نعمًا الى عصر ذلك النهار ثمّ عادوا خائبين ولم يجدوا للجثة اثرًا . فقال البعض لعلّ الوحوش الضارية التي في هذا الوادي اختطفتها لتفترسها في أوكارها

وان سأل القارئ كيف اهمل اصحاب القصر النزول الى الدهليز الذي كان في طرف الحديقة أجبنا انّهم لم يتغاضوا عن الامر لكنهم لم يكونوا يعرفوا من حقيقة هذا الدهليز سوى انّهُ ينتهي الى سربٍ واسع لا منفذ لهُ فلمّا بلغوهُ وداروا في جوانبهِ لم يجدوا فيهِ غير الخفافيش كانت تأوي اليهِ صلب نهارها فخرجوا آيسين من وجدان الفتاة هنالك

وكانت الشمس في أثناء ذلك مالت الى الغروب فخرج كثيرون من المدعوين راجعين الى منازلهم وقراهم المجاورة . وكانوا في طريقهم لا يتحدّثون الّا عن تواري لوسيّا المنكودة الحظ يوم زفافها فيقابلون بين افراح الصباح وأحزان المساء

٣

امّا عائلة الابنة وأُسرة زوجها فانّهم صرفوا تلك الليلة في النحيب والعويل لم تكتحل اجفانهم غماضًا . وكان مع ذلك تتنازعهم عوامل الرجاء يعللون النفس بالامل لعلّهم يقفون للفقيدة على خبر

وفي صباح اليوم التالي جاء بعض الفلاحين ممّن سمعوا بخبر فقد السيّدة لوسيّا فاعلموا اصحاب القصر انّ يوم امس كان قوم من الهمج المعروفين بالبوهيميين(النَوَر) يدورون في جوار القصر وانّهم فرّوا هاربين الى جهة الجنوب ولعلّهم هم الذين احتملوا الفتاة ليغتنوا بما عليها من

الحلي الثمينة من اللؤلؤ والمرجان ومصاغات الذهب

فما سمعت السيدة دي براكنتال هذا الكلام حتى طار لبُّها شعاعاً. فاسرعت الى خدم القصر واوعزت اليهم بان يركبوا الخيل المطهّمة فيجدُّوا في اثر الهاربين ويخلّصوا ابنتها ان وجدوها في ايديهم

فامتطوا الجياد مسرعين ولم يلبثوا بعد ساعات ان ادركوا اولئك الرعاع فاحاطوا بهم وهدَّدوهم بالقتل ان لم يستسلموا. فهلع البوهيميُّون ولم يروا منجاةً الّا بطلب الامان. فحينئذٍ نزل الفرسان وقيَّدوهم وفتّشوا في عرَباتهم فوجدوا اشياء كثيرة مسلوبة فاخذوها ثم اخذوا يستنطقونهم فاقرُّوا انهم اختلسوا ابنتين صغيرتين في ضيعة لا تبعد عن مدينة ماكون. امّا ابنة السيدة دي براكنتال فحلفوا اليمين المحرَّجة انّهم لم يعرفوا من امرها شيئاً

فأُلقي اولئك الانذال في الحبس ووعدهم اهل الابنة بالمواعيد الحسنة ان اطلعوهم على امر فتاتهم فلم يقرُّوا بشيء وأُطلق سبيلهم. لكنَّ السيدة دي براكنتال تطميناً لبالها ارسلت قوماً من الأجراء ليطلبوا لابنتها خبرًا في كلّ مكان يأوي اليها البوهيميُّون في فرنسة وايطالية واسبانية وتكلّفت لذلك نفقات بالغة فذهبت كلّ مساعيها ادراج الرياح فعادت الى فكرها الاول وجزمت بانَّ ابنتها وقعت في مزلجة القصر فافترستها الذئاب. وعليهِ بنتْ لفقيدتها العزيزة شبه قبر حيث توهّمت انّها فُقدت. وامرت بان يُكتب على صليب من الحديد اسم كريمتها « لوسيا دي براكنتال » مع تاريخ غيبتها في ٢٥ حزيران من سنة ١٧١٥. دون ان تصرّح بوفاتها

ثمَّ قضت الام الثكلى اياماً قليلة في القصر كئيبة ولمّا لم تجد لحزنها

سلواناً خرجت الى ضيعة قريبة منهُ فأوت هناك معتزلة عن العالم الغدَّار منقطعةً الى الصلاة واعمال الرحمة. الّا انها كانت قبل مبارحة القصر امرت بان يبنى للمزلقة حافةٌ مرتفعة ودرابزون لئلا يصيب احدًا ما اصاب ابنتها فيهوي الى قعر الوادي. ولم يبقَ مذ ذاك الوقت في القصر غير حاجبٍ مع امرأتهِ أعطتهما السيدة مفاتيح قصرها ووكلت اليهما حراستهُ

وبقيت الامور على هذه الحال سنين عديدة. وألسنُ الاهلين تتناقل عن قصر البارون دي ادراي الروايات العجيبة فيزيدون الخرافات التي تُسوّلها لهم مخيّلتهم. وكانوا يزعمون انَّ الجن تقطن هذا القصر وانَّ ابنة السيدة دي براكنتال لم يختطفها غيرهم. وكانوا اذا أرادوا ان يُسكتوا صغارهم يتهدَّدونهم بان يأخذوهم الى قصر البارون

وكان مع ذلك من وقت الى آخر يسمع الزوَّار بخبر هذا القصر فيحملهم حبهم بالعاديات الى ان يسترخصوا من السيّدة دي براكنتال ويتفقَّدوا انحاءهُ لاسيما قاعة البارون دي ادراي التي فيها كانت اسلحتهُ كسيفهِ ودرعهِ وخوذتهِ وبوق صيدهِ معلّقة على الجدران. وما كان الحاجب لينسى ان يكرّر على مسامع الزوَّار قصة العروس المفقودة ويريهم قبرها

وكان مع ذلك لا يزال سرّ اختفاء لوسيا دي براكنتال مكتوماً يروي عنهُ الرواة امورًا متناقضة وأخبارًا متضاربة الى ان وقع الحادث الآتي ذكرهُ فاثار ما كان كامناً وأوقف الناس على سرّ البارون دي أدراي بعد ان بقي نحو قرنين دفيناً لا يعلم بهِ بشر

٤

لمّا كانت السنة ١٧٤٥ قدم بلاد دوفيناي اربعة شبَّان من وجوه

ليون خرجوا من وطنهم ايَّام احتـــدام القيظ لترويح النفس. فمرُّوا ليس بعيدًا من قصر « مُنسيغور » فقال احدهم اسمهُ موريس دي راَبستين (وقيل دي لوساك): هلمُّوا بنا نزور هذا القصر فاني قد قرأت في ترجمة البارون دي أَذراي ما رغَّبني في رؤيته

فاجاب للحال احد رفقـــة موريس: نعمَ ما ارتأيت وقد سمعتُ انا عنهُ من والدتي عجائب قصَّتها عليَّ منذ نعومة اظفاري

ومن ســاعتهم زاغوا عن طريقهم وتفرَّعوا الآكام الى ان بلغوا الرابية التي فوقها الصرح المقصود ثمَّ طلبوا في الضيعة الرخصة من السيدة دي براكنتال وكانت لم تزل في قيــد الحياة ان يزوروا القصر. فاجابت الى طلبهم وأوصتهم ان يصلّوا على قبر ابنتها

فاسرع الشبَّان وتوقَّلوا الربوة كلمحـــة البصر وادركوا باب القصر بعـــد برهة من الزمان في وقت الهاجرة

ففتح لهم الحاجب ورحَّب بهم لأنهُ كان يعيش مع عائلتـــه منفردًا لا يرى النـــاس الّا قليلًا فكان اذا قدم منهم احد يأنس بهِ ويسرّ بمحادثته

فبعد ان استروح الشبَّان هنيهةً دعاهم الحاجب الى زيارة القصر. وكان قسم منهُ قد استولى عليـــهِ الخراب. فادخلهم في مقاصيرهِ وشرح لهم ما يعرفهُ من امرهِ وأخبار بانيهِ. وكان الزوَّار يتعجَّبون ممَّا يشاهدونهُ من ضخامـــة بنيانهِ ومتانة جدرانهِ واتّصال مقاصيره ببعضها وسعة غرفهِ واعجبهم منظر اسلحة البارون دي أَذراي وكان قد علاهـــا الصدأ لطول الايَّام وهي مع ذلك تنطق عن قوَّة ساعد حاملها

ولمَّا انتهوا من زيارة القصر اخذوا يدورون في حديقتهِ حتى انتهوا

الى ضريح لوسيًا دي براكنتال وبعد ان اسمعهم الحاجب قصَّتها الفاجعة جثوا على ضريحها فصلّوا عن نفسها كما وعدوا والدتها

وكان وجه الشمس في اثناء زيارة الشبَّان الاربعة لقصر مُونسيغور قد تبرقع بالغيوم وانتشر في السماء عارضٌ من السحب المتكاثفة ولمعت في الافق بروقٌ خاطفة. فخاف الزوار اذا خرجوا من القصر ان تدركهم الامطـــار في طريقهم ولا يبلغوا قريةً اخرى يبيتون فيها ليلتهم الَّا بعد شقّ النفس. فطلبوا من الحاجب ان يرخّص لهم بان يقضوا تلك الليلة في القصر فلبى الى دعائهم بطيب القلب

ثمَّ اخذ الزوَّار يروّحون النفس في خمائل الحديقة واستنشاق زهورها العطرة الى ان أخذهم السأم من الحديث. فعرض موريس دي لوساك على رفقتهِ ان يقضوا مساءهم في لعبٍ يلهيهم عن الملل والبطالة. فلم يجدوا لهوًا افضل من لعب الاستتار (cache - cache) وذلك بان يتوارى اثنـــان منهم في بعض المخابئ ويبحث عنهما الآخران الى ان يقفا على مكانهما

فتفرَّق للحـــال اصحابنا في انحاء القصر بجلبة عظيمة لم يُسمع لها مثيل منذ يوم اكليل لوسيًا المفقودة. فكانوا يدورون في مقاصير الحصن وينزلون في اسرابهِ ويطلعون الى سطحهِ حتى بلغ احدهم وهو موريس دي لوساك الى الدهليز الذي وصفناهُ سابقًا فوجدهُ احسن موضع للاستتار عن اصحابهِ فانساب بين الاخشاب الملقـــاة وهو يقهقه فرحًا لوجودهِ مثل هذه المخبأة التي ييأس رفقتهُ من اكتشافها

ولمَّا وصل الى السرب المتسع الجوانب بقي هنيهةً لاطيًا فيهِ ينتظر ما سيكون من امر رفقتهِ. فبعد ثلاث دقائق سمع ضوضاءهم عن بعد فخاف ان يعثروا عليهِ فالتجـــأ الى زاوية في اقصى السرب مستندًا الى

جدارها فاذا بالحائط يتحرك فضرب بيدهِ الجدار واذا هو باب يدور من داخلهِ على عتبة متوارية في الارض وكان البـاب اذا أُقفل لا يختلف عن جوانب السرب شيئاً فيظنّهُ الرائي انهُ احدى زواياه

فدفع موريس هذا البـاب بشدّةٍ وكان من الحديد فرأى وراءهُ معبرًا . ففكر ان يتستّر في داخلهِ لئلا يجدهُ رفقتهُ فدخل المعبر وترك الباب وشأنهُ فعاد الباب الى مكانهِ بقوّة لولبٍ دفعهُ الى العتبة . فانقفل وسُمع لهُ صوتٌ مرنٌ ارتجفت لهُ فرائص موريس ولكن لم يكن المسكين ليظنّ انهُ وقع في داهيةٍ دهيـاء تذيقهُ الموت الواناً لاسيما انهُ كان يسمع ضوضاء رفقتـهِ عن كثب . فصمت لم يبد حراكاً ريثما يبتعد عنهُ طالبوهُ فيخرج اليهم ويمزح بهم لعدم وقوفهم على مختبإهِ

وكان موريس واقفاً في معبرهِ وهو في الظلمة الحالكة لا ترى عيناهُ شيئاً . فلمّا مضى عليهِ بضع دقائق وسكنت اصوات رفقتهِ اراد ان يفتح الباب ويرجع الى سرب الاخشاب ويخرج منهُ الى الدهليز الذي في زاوية الحديقة فلم يجد ليدهِ مقبضاً يفتح بهِ الباب المقفـل وراءهُ . وكان الباب كلهُ مصفّحاً بصفائح الحديد فتحيّر لذلك ثمَّ اخذ يدخل اظافرهُ واطراف اصابعهِ في مَوصل البـاب باطارهِ فلم تنشب اظفاهُ في الصير بتّةً وكان اطار الباب لا يكاد يتميز عن جوانبهِ

ففزع موريس وصرخ مرعوباً فلم يُسمع لصوتهِ صدى . فـاراد ان يتجول في هذا المجاز المظلم لعلّهُ يجـد لهُ منفذاً آخر فمشى بعض خطوات حتى دار بهِ المعبر يميناً واتسع جانباه فتبعهُ همساً حتى وصل الى غرفةٍ طولها نحو خمسة امتار في عرض ثلاثة منهـا وعلوّ اربعة وكان لها كوة صغيرة من الزجاج ينفذ فيها نورٌ ضعيف من علُ . وعلى احد جوانب الغرفة

كوّة اخرى ضيقة مستطيلة علوّها نحو القامتين

فلمّا استقرَّت رجلهُ في قرارها اشتمَّ منها رائحة اشبه بنتن جيفة باليةٍ . فاشمأزَّ لهذه الريح الكريهة لكنّهُ اخرج من جيبهِ قليلاً من الكافور كان معهُ فاستنشقهُ

٥

ثمَّ تجلّد وتقدّم الى الامام واخذ يتفقد تلك الغرفة مستنيرًا بالضوء الضعيف اللائح من الكوّتين . فوقع نظرهُ على اسلحة معلّقة على الجدار علاها الصدأ وبجانبها خوذة فارس مع نفيرٍ ضخم . فهتف الفتى من ساعتهِ : « هذه ولا شك مخبـأة البارون دي ادراي المجهولة وان هذا ألا نفيرهُ الذي كان ينفخ فيـهِ اذا اراد الهجوم برجالهِ على الاعداء وكان يُسمع على مسافة بعيدة . واذا نفختُ انا فيهِ نجوتُ لا محالة » . فاخذهُ وجعـل يبوّق فيهِ فلم يُسمع لهُ صوتٌ البتة لقدم عهدهِ . فاعادهُ الى مكانهِ كئيباً

ثمَّ حدّق ببصرهِ الى زوايا الغرفة فرأى من عن يمينهِ سوادًا واذا هو كرسي مبطّن ذو سندٍ ومرفقين وكأنَّ امرأةً جالسة عليهِ متكئةً على احد مرفقيهِ بهيئة النائم وقدماها على موطىءٍ امام الكرسي

فظنَّ موريس انها ابنة الحاجب اتت هذا المكان فرارًا من حرارة القيظ فنامت هنالك

فاقترب منها ليوقظها فلم تُحرِ جواباً . فاراد ان يجتذبها فاذا هي جيفة فتاة ميتة . فاضطربت جوارح المسكين وامتقع لونهُ وانعقد لسانهُ خوفاً وهلعاً وقفَّ شعر رأسهِ وسقط على الارض مغشياً عليهِ

فبقي على هذه الحالة ساعةً الى ان خيَّم الظلام على الارض . وكان

في خلال ذلك انّ العاصفة هبّت على القصر وهطلت الامطار وقصف الرعد فبلغ صوت هزيمها مسامع موريس فانتبه مذعورًا كرجل ضغطهُ جثام في منامهِ يستيقظ متوجسًا هلعًا

ففتح عينيهِ واذا بجيفة الفتاة في كرسيّها بازائهِ. فقام مسرعًا يطلب لهُ مفرًا من هذا المنظر الهائل ورجع الى باب المعبر المغلق الذي دخل منهُ لعلهُ يجد وسيلة لفتحهِ فعالجهُ مدّةً وسعى في فتحهِ جهدهُ فخاب املهُ واخفق مسعاهُ

ثم عاد الى الغرفة واخذ مقعدًا صغيرًا وجدهُ هناك فصعد عليهِ من جهة الكوّة المستطيلة وشرع يصرخ بملء فيهِ راجيًا انّ احدًا يسمع صراخهُ من الخارج فيسرع الى نجاته. الّا انّ الكوّة كانت على جانب القصر المشرف على الوادي فذهب الصوت متضعضعًا لم يلقَ اذنًا صاغيةً لاسيما انّ الريح لم تزل عاصفةً والامطار هاطلة

فخارت قوى موريس من كثرة صراخهِ ويبس حلقهُ عطشًا فاخذ منديلهُ وجعلهُ على طرف الكوّة حيث كان يجري ماء المطر فلمّا ابتلّت جعل يمتصّها الى ان برّد غليلهُ واكل كسرةً من الخبز كانت بقيت معهُ من سفرهِ فعادت اليهِ قواهُ

وفي تلك الاثناء اعار اذنهُ الى الخارج فسمع شبه لغطٍ من بعيد فلم يشك انّ رفقتهُ يطلبونهُ ويدورون في كلّ انحاء القصر ليقفوا على آثارهِ فصار يجهد نفسهُ في الصراخ ما امكنهُ. وكان احيانًا يرجع الى باب المعبر الحديدي فيضربهُ بيديهِ ويلكمهُ برجليهِ رجاء ان يسمعهُ احدٌ من رفقتهِ فيعرف مكانهُ. وبقي على ذلك ساعةً الى ان ترشّح جسمهُ بالعرق واضناهُ التعب

فلمّا أيس من فتح الباب أُصيب بضرب من الجنون فصار يخبط الارض برجليهِ وينتف شعرهُ. ثمّ رمى بنفسهِ على الحضيض متمرّغًا بالتراب كالصريع ثمّ فاضت عبراتهُ واجهش بالبكاء طويلًا وكان يفكر في والدتهِ المسكينة وما يعتريها من الوجد والحزن اذا بلغها فقد ولدها. وكان يزيدهُ رعبًا منظر جثّة تلك الفتاة وهي لا شك لوسيًا دي براكنتال المفقودة في نهار عرسها الذي سمع قصّتها قبل بضع ساعات. فما أصابها سيصيبهُ ايضًا لا محالة فيموت حيًا في قبرهِ هذا كما ماتت هي قبلهُ

وبينما كانت هذه الافكار والهموم تساورهُ وتفتّ في عضدهِ اذ سمع ساعة القصر تدق الساعة العاشرة من الليل وهي ساعة رقادهِ في بيت ابيهِ. وكان موريس لا يأوي الى فراشهِ دون ان يصلّي صلاة الليل التي تعلّمها من امّهِ التقيّة. فما سمع دقّات الساعة حتى سبق الى فكرهِ ذكر الصلاة المعتادة فهبّ اسرع من طرف العين وجثا على ركبتيهِ وصلّى الى الله صلاةً لم يخطر على بالهِ انهُ تلا صلاةً احرّ واخشع منها في حياتهِ

فبقي مدّةً مستحرًا في الدعاء الى الربّ منقذ البائسين والى البتول العذراء امّ المراحم فشعر بالهدوّ عاد الى قلبهِ وكأنّ صوتًا يناجيهِ في الباطن أن: «ثق يا بُني فانّ الخلاص قريب»

وقام من صلاتهِ ثمّ انقع غلّتهُ بمنديلهِ المبلول بماء المطر واسند ظهرهُ الى الحائط وطلب من النوم بعض الراحة لجسمهِ المنهوك. فما لبث ان استولى سلطان الكرى على اجفانهِ وغرق في السُّبات لكنّهُ لم تمرّ عليهِ هجعة من الليل حتى عرض لهُ منام مزعج صوّر لهُ في مخيّلتهِ الاهوال التي قاساها في مساء نهارهِ فاستيقظ من سنتهِ مرعوبًا

٦

وكان اديم السماء قد صفا في خلال رقدة موديس والقمر قد طلع فوق الافق فنفذ شيء من نورهِ في حبس السجين مارًّا بالكوّة المستطيلة التي مرَّ ذكرها . فانعشهُ هذا المنظر غير انَّ بصره ُ وقع ثانية على الكرسي الذي فيهِ جسم الفتاة الميتة فاسودَّت الدنيا في وجههِ . فصرف نظره ُ الى زاوية اخرى لعلَّهُ يكشف عنهُ هذه الغمَّة واذا بعينين متّقدتين كانهما الشهابان تشخصان اليهِ . فانخلع قلبهُ لهذا المنظر واقشعرَّ بدنهُ واحسَّ بعرق بارد يجري في كلّ اعضائهِ

وكان المسكين لا يعرف ما وراء هذا المرأى العجيب وهل العينان لانس او لجنّ . فبقي واجمًا ينتظر بفروغ الصبر طلوع الفجر ليزيل الشبهة وينفّس عنهُ الكربة وكانت الدقائق تلوح لهُ اطول من السنين الى ان تمزَّق ستر الليل قليلًا فضعف نور العينين اللامعتين . ثمَّ انفلق الفجر تمامًا فرأى واذا بالعينين عينا هرّ كبير كان دخل من الكوّة ليبيت ليلًا في ذلك المكان المظلم

فقام موديس لوقتهِ وحاول ان يمسكهُ ليأنس بهِ ويعلّقهُ الّا انَّ الحيوان نفر منهُ وقفز الى الكوّة كأنَّهُ السهم الرشيق

فبقي السجين وحده ُ كما كان يوم امس . لكنَّ عينيهِ كانتا اعتادتا على ظلمة هذا المكان فاخذ يسرّح ابصاره ُ في كلّ اثاث الغرفة وادواتها فتبيَّن لهُ بحيث لم يمكنهُ الريب انَّ هذا المكان هو هو مختبأُ البارون دي ادراي الذي طالما حاول الناس الوقوف على سرّهِ الى ذلك العهد ثمَّ اقترب ثانيةً من جثة الفتاة ليفحصها واذا هي بهيكل عظام اشبه

منها بجثة ميت وكانت لحمانها قد تناثرت وبقي عليها قِطَع من الجلد وعلى رأسها بعض جِفاف من الشعر . وكان في اصبعها خاتم من الماس وعلى عنقها قلائد من اللؤلؤ في وسطها صليب من الذهب الابريز

فلمَّا نظر موديس الصليب آلة فداء البشر قرَّبهُ من شفتيهِ وقبَّلهُ بكل اكرام ثم جثا امامهُ وصلَّى الى الله ثانية طالبًا منهُ النجاة باستحقاق صليب ابنهِ الحبيب . ولم ينسَ في صلاتهِ تلك البائسة التي لقيت حتفها قبلهُ في ذلك الحبس

ثمَّ رأى في طرف آخر منضدة (طاولة) علاها الغبار ونخرها السوس لتقادم عهدها فنفض غبارها وفتح جوَّارها واذا بكتابٍ كبير قديم الطبع صعب القراءة . فامعن فيهِ النظر حتى تمكَّن من قراءة عنوانهِ فوجده ُ ترجمة قديمة للاسفار الالهيَّة فقلَّبهُ واذا بورقةٍ في ضمنهِ كُتب عليها بقلم رصاص ما يلي :

« ايها الشقي الذي ساقهُ سوء حظهِ الى هذه الهوَّة فقبر بها حيًّا ارفع بنظرك الى الله وتوسَّل اليهِ ان يتغمَّد ذنوبك ويقبل ضحيَّة حياتك ويرحم نفسك لأنَّهُ لا مناص لك من هذا السجن او تقوم الساعة »

لوسيًا دي براكنتال   في ٢٨ حزيران ١٧١٥

٧

فما وقع نظر موديس على هذه الاسطر حتى طار قلبهُ شعاعًا وظنَّ انَّهُ قرأ فيها حكم موتهِ ومن ثمَّ كان فعلها في نفسهِ اسرع من شرارة النار في بعض مخازن البارود فصرخ صرخةً عظيمة وسقط متلاشي القوى لا يبدي حراكًا

مرّت الساعات على المسكين وهو لاصق بالحضيض كأنهُ ميت ولم يفق من غشيتهِ الّا في اصيل النهار فشعر بضعف لا يوصف وكان جسمهُ مبتلًا بعرق بارد فلم يقوَ على النهوض ثمَّ حدَّق ببصرهِ الى سجنهِ فاذا بالهرّ الذي رآهُ في غلس ذلك اليوم رابض في قرنتهِ. فاحيا منظر هذا الحيوان الألوف ميْتَ آمال موريس وشدَّد قواهُ فنهض اليهِ ليمسكهُ ويتخذهُ لهُ انيساً في وحدتهِ

لكن هذا الهرّ كان وحشيًّا لا يمكّن منهُ احدًا فما احسّ بحركة موريس حتى وثب الى الكوَّة وفرَّ هاربًا قبل ان يمسهُ السجين

فبقي التعيس وحدهُ بازاء جثة الفتاة لا يجد حيلةً للخلاص ولا وسيلةً للنجاة

ثمَّ عاد الى الورقة التي قرأها صباحاً وتأمل تاريخها فاذا هو ٢٨ حزيران سنة ١٧١٥ وتذكَّر التاريخ الذي قرأهُ في الحديقة على الصليب الذي نصبتهُ امُّ الفتاة يوم فقدانها فكان ٢٥ حزيران فاستنتج من هذا الفرق انَّ لوسيا دي براكنتال باتت في سجنها ثلاثة ايام تتضوَّر... حتى ماتت جوعاً

فاخذ موريس يفكر في نفسهِ ويرى ما ينتظرهُ بعدُ من الاوجاع والعذابات فقام يدور كالسبع في قفصهِ يطلب لهُ مناصاً حيث لا يُؤمَّل مناص

ثمَّ قبض الاسلحة المعلَّقة في الجدار وعالج بها باب سجنهِ لكنَّها تكسَّرت بين يديهِ لفعل الصدأ فيها. فصار يضرب بقطعها الباب ليُسمع لها صلصلةً ويشعر بهِ احدٌ من خارج. فما كان لفعلهِ من فائدة

فنصب ثانية اثاث الغرفة ونضَّد بعضها فوق بعض لعلهُ يدرك الكوَّة

ويرى منها ما يحيط بالسرب فيمكنهُ بذلك ان يُشعر الناس بمحلّ سكناهُ فذهبت كلُّ مساعيهِ ادراج الرياح

وفي تلك الساعة نفذ شعاع الشمس من كوَّتهِ فنظر الى جثة لوسيا ورأى اسنانها المعرَّاة من الجلد فخُيّل لهُ انَّها تقهقه وتسخر من كدّهِ الباطل. فزادهُ هذا المنظر حزنًا وهلعاً فانزوى الى ناحية وجلس محتبياً ورأسهُ على ركبتيهِ. فاستمرَّ على ذلك زمناً طويلًا وهو غائص في بحر الافكار التي كانت تتناوبهُ فتذيقهُ الموت الوانًا

وبلغ بهِ يأسهُ الى ان قام وهو فاقد الرشد واخذ قطعة من الاسلحة التي القاها على الارض لينتحر ويتخلَّص من هذه البلايا المحدقة بهِ. الّا انَّ نظرهُ وقع على صليب الذهب المتعلّق في عنق الفتاة فتذكر تعاليم امّهِ الصالحة ومن وقتهِ القى عنهُ السلاح وجثا راكعًا يستميح من الله غفرانًا عن ذنبهِ ومسلمًا نفسهُ لارادتهِ تعالى عملًا بما قرأ في رقعة لوسيا دي براكنتال

وكان في اثناء ذلك قد اجهدهُ العطش وتقلَّصت شفتاهُ فاخذ يمصّ منديلهُ فلم يستخرج منهُ سوى نُقيطات قليلة لم تكفِ لتُروي حرَّتهِ فصبر وعمد الى آخر كسرةٍ من الخبز كان ابقاها في جيبهِ فاكلها بعد الجهد الجهيد ليبس ريقهِ

ثمَّ جلس مسندًا ظهرهُ الى الجدار وكان يخاف ان يستولي عليهُ الكرى فينام نوماً لا يقظة لهُ بعدهُ الّا انَّهُ لم يمكنهُ ان يردَّ هجمات هذا العدوّ اللطيف فاستسلم اليهِ ونام نوماً مضطربًا وتململ عدَّة ساعات على الحضيض تنتاب مخيَّلتهُ الاحلام المزعجة

فلمَّا تنفَّس الصباح انتبه وكان اول فكرهِ انَّهُ بلغ يومهُ الاخير

لما احسَّ من انحلال قواهُ. لكنهُ تسلّح باشارة المسيحي وجثا مصليًا امام صليب الذهب ومجدّدًا تقدمة نفسهِ الى الله ليصنع بهِ ما يشاء.

وما كاد يتمُّ هذا الفعل التقويّ حتى سمع خرخرةً في سجنهِ فنظر واذا بالهرّ قد عاد الى مكانهِ المألوف وهو هذه المرَّة نائمٌ يغطُّ في نومهِ

ففكَّر موريس كيف يمكنهُ ان يتَّخذ هذا الحيوان كوسيلة لنجاتهِ من الورطة التي وقع فيها

فصلى الى الله من صميم قلبهِ ليلهمهُ ما يفعل واذا بفكر عنَّ لهُ اعتدَّهُ المسكين كوحيٍ من السماء.

واذ رأى نفسهُ على رمق اخذ يزحف بكلّ لطف وهدوّ الى جهة الهرّ بحيث لا يسمع لهُ همسًا. فلمَّا بلغ قريبًا منهُ نزع صُدرتهُ ورماها عليهِ بكلّ خفَّة

فاذ شعر السنَّور بهذا الغطاء همَّ بالفرار لكنَّ موريس القى بنفسهِ عليهِ وصدَّهُ بما بقي لديهِ من القوة. وكان الهرّ يموء ويضطرب بين يديهِ ليفلت منهُ بيد انَّ القنوط زاد في قوّة موريس فتمكَّن منهُ وضبطهُ تحت صدرهِ

ثمَّ اخرج منديلهُ من جيبهِ وربطهُ بذَنب الحيوان ربطًا وثيقًا. وكان الهرّ في اثناء ذلك يزيد شراسةً وقلقًا حتى انَّهُ خدش يدي موريس باظافيرهِ فسال دمهُ لكنَّهُ لم يُبالِ بالالم حتى أتمَّ ما باشر بهِ. ثمَّ ضبط الهرّ الى طلوع النهار فسرَّح عنهُ

فخرج الهرّ من الكوَّة كالبرق ناجيًا بنفسهِ من يدي السجين وساحبًا المنديل بذنبهِ

فلمَّا توارى خرَّ موريس ساجدًا لله وشكرهُ من صميم القلب على نجاح

عملهِ واعتدَّهُ الهامًا سمويًّا منهُ عزَّ وجلّ وجزاء على تسليم امرهِ لمشيئتهِ تعالى. وكان صِراعهُ للهرّ قد انهك بقيَّة قواه فتمدَّد على الارض طريحًا ينتظر بفروغ الصبر نتيجة عملهِ

٨

وسائل يسأل وماذا جرى لرفقة موريس واهل القصر بعد غيبة صديقهم حدّثْ عن حزنهم ولا حرج. فانَّهم اذ رأوا في مساء ذاك النهار المشئوم انَّ رفيقهم غاب عن العيان طلبوهُ في انحاء القصر طلبَهم لليتيمة المفقودة فلم يدَعوا حُجرة الَّا زاروها ولا زاوية الَّا وتفقَّدوها

فلمَّا أيسوا من لقيانهِ ظنُّوا انَّهُ وقع هو ايضًا في الوادي المجاور للقصر كلوسيا دي براكنتال بعد ان تعدَّى الدرابزين الذي امرت السيدة بنصبهِ على حافة الهوَّة. وقضوا ليلتهم تلك في كدر لا يوصف ولم يمكن احدًا منهم ان يذوق راحة الوسن

وعند الصباح استأنفوا التفتيش على الفتى الضائع وهبطوا الى الوادي رجاء أن يجدوا فيهِ بقايا موريس فيدفنوهُ باكرام. فكان تعبهم بلا جدوى وعادوا فارغين يضربون الأَصدرَين

ثمَّ ارسلوا واخبروا السيدة دي براكنتال بمصابهم فجدَّد هذا الخبر في قلبها اللوعة على موت فتاتها وبكت على موريس بكاء الام على وحيدها

ثمَّ اوعزت الى بعض اهل القرى ان: « اصعدوا الى قصري وأفرغوا كنانة الجهد لعلَّكم تُلفون الصبي حيًّا او ميتًا » فاجابوا الى امرها

وقضوا صلب نهارهم في البحث عن الشريد فعادوا آيسين من وجدانهِ وهم يزعمون انَّ الجنَّ اختطفتهُ

فلمَّا رأى اصحاب موريس انَّ صديقهم فُقد ولم يبقَ لهُ امل لاكتشافهِ بكوهُ بكاءً مرًّا وعوَّلوا على ان يقيموا لهُ بقرب مشهد لوسيًا دي براكنتال صليبًا شبيهًا بصليب قبرها يكتبون عليهِ اسمهُ مع تاريخ وفاتهِ المزعوم

وفي صباح اليوم التالي اجتمعوا لإتمام ما اعتمدوا عليهِ فقدموا باكرًا الى مكان الحديقـة حيث نُصب ضريح لوسيًا وهم يرددون عبارات الاسف على فقد رفيقهم

فبينـا هم على ذلك يقرئون موريس الوداع الاخير اذ خرج الهرّ من الكوَّة كما ذكرنا وفي ذنبهِ منديل السجين. فنظرهُ الحضور ولحظوا الجهة التي منهـا طفر. فتبع ابن الحاجب الحيوانَ المذنب ولم يزل يسعى وراءهُ حتى ادركهُ

فلحقت بهِ الجماعة واستدارت حولهُ لترى ما الامر. فحلُّوا المنديل وفحصوهُ فاذا عليهِ مرقوم «م. ر.» ليس الَّا

فصرخ احد الشبَّان: «موريس دي راباستين». ابشروا اصدقائي انَّ رفيقنـا حي وهذا منديلـهُ هيَّا بنا ندقق البحث عنهُ ولنسرع قبل ان تدركهُ المنيَّة

فما قال هذا الكلام حتى وثب الجميع الى حيث رأوا الهرّ نافذًا

فاخذ بعضهم يراقبون عرصةً كثر فيها الردم وطالت الاعشاب كانت على جانب الحديقـة يرمي اهل القصر عندها حطام الدار. فاذا بكوَّة زجاجيَّة نسجت عليها العناكب وعلتها الغبرة فنظروا منها فرأوا الغرفة التي كان فيها موريس وهو بين حي وميت

وكان الاخرون استعانوا بالحبـال حتى وصلوا الى جهة جدار القصر المشرف على الوادي فنظروا الكوَّة المستطيلة التي منها وثب القط فتحققوا ايضًا انَّ هنالك حجرة مجهولة وانَّ فيها الفتى الضائع

فتباشر الفريقان بما وجداهُ وتشاوروا في اقرب طريقة لانقـاذ الفتى من مكروههِ وتنفيس كربتـهِ. فكان رأي الجميع ان تُفتح الغرفة من كوَّتها العليا

فعمدوا من ساعتهم الى المعـاول وانتزعوا زجاجة الكوة واقتلعوا بعض الحجارة ثمَّ ربطوا الحاجب بحبل وانزلوهُ الى ذلك النَّفق الخفي فاخذ بين ذراعيهِ موريس وانتشلـهُ من قبرهِ وصعد بهِ الى ساحة الدار

وكان نوع من السبات قد استولى في تلك الاثناء على حواسّ الفقيد فلم يكد يشعر بما جرى لهُ. فاضجعوهُ على فراش وثير وتداركوهُ ببعض الادوية المنعشة صبُّوا منها نقطًا في فمهِ حتى فتح عينيهِ بعد قليل ورأى حولهُ الاقارب والاصحاب يتهلَّلون فرحًا لنجاتهِ بعد ان استطار لبَّهم روعًا لفقدهِ

ولمَّا عادت الى المسكين قواهُ قصَّ عليهم تفاصيل خبرهِ فتوجَّعوا لهُ واثنوا على جميل صبرهِ. ثمَّ جثوا جميعًا ساجدين وقدَّموا للربّ الشكر علـى ما أنعم بهِ عليهم من خلاص الفتى الشريد

وعلى الأثر اخبروا السيدة دي براكنتال بوجود جثة ابنتها فاسرعت الى القصر وهنَّأت موريس بنجاتهِ ثمَّ نزلت بسلَّم الى الغرفـة حيث كانت كريمتها وهي لابسة بعدُ ثياب عرسها فاذرفت عليها الدموع السخينة ووضعت بقاياها في تابوت واقامت جنازة حافلةً لراحة نفس ابنتها. وكانت استدعت

لهذه الجنازة الكاهن نفسهُ الذي بارك اقترانها يوم عرسها واودعوها اللحد آسفين على غصن شبابها المنقصف

ثمّ امرت السيدة بان تهدم تلك الحجرة المشؤومة لئلا يبقى لها اثر

فلمّا حضر الفعلة اخذوا موريس كدليل يرشدهم الى الدهليز ومدخل السرب ففتحوا الباب بلا عناء لكنهُ انطبق من تلقاء ذاتهِ بعد اجتيازهم

فلمّا سمع موريس صوت الباب تذكَّر ما حلَّ بهِ سابقًا فارتجف مرتعبًا. فعاد الفعلة يريدون فتحهُ فلم يستطيعوا واضطروا ان يخرجوا من الكوة العليا ويعودوا الى الباب من الدهليز ففتحوهُ ثانيةً واقتلعوهُ فوجدوا رخامة كان البارون دي ادراي جعل تحتها ادوات واثقالًا وبكرات عديدة كانت تحرّك الباب وتقفلهُ بعد فتحهِ فاخرجوها وتعجبوا من حذق مهندسها البارع

ثمَّ نُقضت جدران تلك الحجرة وأُقيم في مكانها معبدٌ جُعل في باحتهِ ضريح لوسيًا بكل اكرام. ثمّ عادت امها وسكنت القصر بجوار قبر ابنتها ولم تفارقهُ الى ان دعاها الله الى ديار الابرار فدُفنت في المعبد الذي ابتنتهُ على قاب قوسين من ابنتها

ليلة الاهوال

معرّبة عن الافرنسية بقلم شاكر افندي ابي ناضر

كان في سالف الايام في بلاد دوفينه في فرنسة امرأة ارملة قد مسَّها الفقر وألمت بها رزايا الدهر وكان لها ولد وحيد تكبَّدت عرَق القربة في سبيل تربيتهِ حتى اصبحت في حالة من العوز والتعب لم تتمالك معها على مواصلة الجهد في خطّتها الشاقة. فجعلت تجيل النظر وتمعن الفكر لعلّها تفتق حيلةً بها تتوصَّل الى سبب تصيب بهِ رزقاً. فخطر لها حينئذٍ ان تبعث ولدها الذي لم يكن لهُ من العمر سوى سبع عشرة سنة الى رجل من معارف اسرتها حدَّاد في مدينة ليون وهي واثقة ان ذلك الحداد لا يرد لها طلباً وان ابنها يتعلم عليهِ صناعة الحدادة فيستغني بها عن السؤال ويتخلّص من شباك الاهوال. وكان يوم فراقهما من اصعب الايام على قلبيهما فانَّ الفتى قام فتأبط صرَّةً فيها بعض الحوائج من جملتها كتاب « الاقتداء بالمسيح » استحلفتهُ امُّهُ ان يقرأ كل يوم صحيفة منهُ . واخذ بعض قطع من النقود تيسَّرت لهُ وحمل ايضاً مؤونة اكثرت لهُ منها امّهُ احتياطاً لهُ واشفاقاً عليهِ وركب غابر السفر وسار متوكّلًا على رب البشر. وقد شعر بألم الفراق حتى كاد لا يقوى على تكفكف دمعهِ المهراق ومسك نفسهِ عن التلفُّت مدَّةً رغماً عن وصيَّة امهِ عند الوداع. غير انهُ

وقف اخيرًا وظنَّ انَّهُ وصل الى حد لا يُؤاخذ معهُ بلفتةٍ حانت منهُ الى الوراء فلم يرَ عند الأُفق شيئًا ممَّا كان يظن بل وقع طرفهُ على بعض القرويين السائرين في الطريق اما امهُ فقد توارت وراء الهضاب

ولمَّا تيقن انَّهُ شطَّ مزارهُ وبَعد قرارهُ هاجت منهُ الاشجان واشتدَّ عليهِ الحنان ففاضت منهُ العبرات واطلق عنان الحسرات ولم يقدر ان يمسك نفسهُ عن ذلك لما طرأ عليهِ من الافكار هنالك فاعياهُ مرّ الفراق وهالهُ بُعد التلاقي فانطرح على الحضيض وراح اسير الحزن والاكتئاب. فدار في خلدهِ ما مضى من زمن الصبا ومثَّلت لهُ ذاكرتهُ اياماً كان فيها خلي البال من البلبال يمرح في حلل الافراح ويرتع في عيش رحراح. وارتاح ذهنهُ الى الذكرى بماضيهِ معتاضاً عمَّا صوَّر لهُ الفكر من أحوال المستقبل واهوالهِ ومشاقهِ واكدارهِ. وكان يحسب نفسهُ في ليون ماشياً في زقاق مظلمٍ منتنٍ يجرّ رجليهِ في الوحول ويقابل هذه الحالة الشنعاء بالرياض الغناء والمروج الخضراء الحافَّة بوطنهِ العزيز

وكان يتصوَّر نفسهُ متمثلًا امام ناظرٍ غليظٍ ذي وجه أغبر اقتر يعمل على ضرب المطرقة سحابة نهارهِ الامر الذي جعل قلبهُ يتفطَّر من الحزن والكدر ممَّا استولى عليهِ من الخوف الذي لم يشعر بهِ من قبل وتبدل ما كان يتوهَّمهُ قبيل ذلك الحين من حسن الحال في الاستقبال بسوء المآل وخيبة الآمال وصار كحاطب ليل لم يضيءْ فيهِ سوى الشرارات المتطايرات من كور الحدادة في ليون. وبعد ذلك زال برقع الصبا عن عينيهِ وتزحزح وانكشف لهُ الاستقبال بحقيقتهِ واتَّضح: وبقي على ذلك حيناً وهو خائف وَجِل ينتفض كما انتفض العصفور بلَّلهُ القطر

ثمَّ سكن جأشهُ بعد ان تنفَّس الصعداء مدةً ورجع الى نفسهِ منتبهاً

فرأى بين يديهِ كتاباً حسن القالب مذهَّب الجوانب متقن الطبع جلدهُ الروسيّ مرسوم برسم مخصوص فعرفهُ انَّهُ كتاب الاقتداء. وكان في الكتاب صورة ملوَّنة تمثِّل احد الاولياء القديسين موضوعة فيهِ بمثابة علامة يهتدي بها القارئ الى الصحيفة التي قطع عندها قراءتهُ. فاعتبر هذه العلامة من عنايات الله بهِ وعلَّق عليها امرًا خطيرًا كأنَّ الله جعلها لاستلفات انظارهِ حتى يقرأ بامعان النظر الصحيفة التي هي فيها عساهُ يستفيد منها

فاخذ تلك الصورة وجعل يقلّبها بين اصابعهِ غير مبالٍ بها وقد استغرق في شجاهُ واغرورقت عيناهُ وما كانت حركاتهُ الَّا عفواً. وفي اثناء ذلك رمى بنظرهِ على بعض اسطر الكتاب واجالهُ فيها وهو لم يقرأ منها حرفاً لانهُ كان ينظر ولا يرى. لكنهُ لم يلبث في هذه الحالة طويلًا شأن الفتيان نظرائهِ بل انقشعت عنهُ غيوم الهواجس والهموم ونابت عنها في سماء السويداء بلجةٌ ظنها دواء لدائهِ وفرجة في بلائهِ وما انتبه من خمولهِ هذا وملك عقلهُ الَّا كانت عيناهُ محدقتين بهذه الكلمات من كتاب الاقتداء وهي: « يا بنيَّ دعني افعل معك ما اشاء واريد فاني اعلم بما يوافقك »

فظنَّ الفتى ان الملائكة تهمس اليهِ بحديثها وسمع لها صدًى لذيذاً في قلبهِ فازاح عنهُ الاتراح وملأهُ من الافراح ونهض فقال للهاتف السرّي: اللهمَّ ان الحقَّ ما نطقت وها عبدك شاعر بالبلسم الذي وضعتهُ على جرحهِ وهو متكل على عنايتك يا ارحم الراحمين

ثم قال وقد ضمَّ الكتاب الى صدرهِ: ان امي قد اصابت باعطائي هذا الكتاب النفيس فلا غرو ان لي منهُ عوذةً تقيني من الرزايا وحرزاً يحرسني من البلايا وكنتُ كمختلّ الشعور اظنُّ نفسي منفردًا وحدي ولم

ادرِ ان في جانبي جليساً انيساً ونديماً حميماً ورفيقاً صديقاً اما الان فلم يروعني السير غوراً ونجداً

قال ثمَّ القى صرّتهُ على ظهرهِ وتتبَّع طريقهُ وقد دبَّ فيهِ نشاط جديد وثابت اليهِ همة كان القنوط قد هتك ستارها واخمد نارها ولاح لهُ ان يذهب الى اقرب المدن اليهِ وهي مدينة تبعد عن ليون نحو اربع عشرة مرحلة وان يستأجر منها احدى العربات المعدَّة لنقل الركّاب يطوف بها الحوذي تلك الناحية كأنها قافلة تلك الاصقاع وهي في الحقيقة كناية عن مركبة بلا لولب تجرّها الخيل فتقصف ظهر الراكب قصفاً وهي مكشوفة الجوانب ينفح فيها الريح نفحاً ولا تسع الّا اثني عشر راكباً غير ان الحوذي يثقلها ببعض المشاة من ابناء السبيل ويوسع خيلها ضرباً حتى تنهب الارض نهباً

ولمَّا كان عدد الركاب غير محصور رأى الفتى ان لا حاجة الى استئجار محلٍ فيها قبل ان تأزف ساعة الرحيل وانَّهُ أيان حضر قبل السفر يجد فيها لهُ محلاً فانَّ الحوذي لا يحرّك قدماً قبل ان يقبل عليها من الركاب عدداً يشغل جميع محلاتها . وهي كانت المركبة الوحيدة في تلك الايام التي تقلّ الناس الى مدينة ليون وتصل اليها في مدة ثمان عشرة ساعة فقط . ولا عيب فيها سوى عجزٍ يحمل الركاب على النزول تخفيفاً لحملها حتى تنهض بهِ وصَخبٍ بينهم نسوة على ذراعهنَّ اطفال لا ينفكّون عن البكاء والعويل

ورأى الفتى انَّهُ ينبغي لهُ ان يعدل عن المهيع العامّ ويسير في اقرب طريق بين الخمائل والحدائق حتى يصل في الوقت المعيَّن . وكان للطريق التي اتخذها مزيّتان الاولى قرب المسافة فيها والثانية امتدادها على حافَّة ساقية ماء فيها من انواع الاسماك ما يدهش النظر تعوَّدت الصبيان على

المجيء اليها والصيد منها . فكان سير الفتى وسريان الماء متجهين جهةً واحدة كأن الماء ودَّ لو شارك الفتى بالابتعاد عن تلك الاراضي وما من احدٍ يقدر ان يشعر بشدَّة الوحشة التي تستولي على قلب امرئٍ فارق اوطانه ان لم يختبر ذلك بنفسهِ بحسب ما جاء من انَّهُ :

لا يعلم الشوق الّا من يكابدهُ   ولا الصبابة الّا من يعانيها

فكم من رجل رفيع القدر واسع الفكر شاقهُ ذكر منزلٍ وطلل فشكى وبكى وكم من معنًى طاف الخرابات والرسوم وهو يُصعد الزفرات وتساورهُ الهموم وكم رأينا من راحل عاد الى الديار وما مسَّ تربها حتى بادرها بالتحيَّة والسلام وهو يحنّ الى احجارها واشجارها وانهارها واوكارها . وهكذا كان الفتى ينظر نظرة الحزين الكئيب الى تلك الزهور التي ما كان يخالها الناظر الّا بساطاً من سندس تتدبج بهِ ضفَّتا الساقية ويراوحهُ النسيم فيضرب باذيالهِ سطح الماء . وهو يسيل غير انَّهُ لم يرَ شيئاً غريباً في ذلك لانَّهُ تعوَّد منذ نعومة اظفارهِ غشيان تلك الرياض وورود تلك الحياض . وكان يحسب انَّهُ يطيل المقام في الديار طالما هو يتبع جريان ذَيّاك الجدول الصافي وينتعش بذياك النسيم الشافي وقد علم انَّهُ قطع الجسر الخشبيّ الاخير الذي كان يأتيهِ بعض المرات فيرمي امامهُ شباكهُ وحبائلهُ . وكان كلما قرب من المدينة زاد همهُ وغمّهُ ولم يرَ في ذلك امراً ذا بالٍ وقد رأى من نفسهِ ضعفاً ما تعوَّدهُ من ذي قبل فتبلَّل جبينهُ بالعرق واصطكت رجلاهُ فعمد الى كيس الزاد الذي معهُ واخذ منهُ فاكل ثم استراح في ظل شجرة حتى تنشَّط وقام بعد ذلك يواصل السير الى المدينة المقصودة

وهي مدينة صغيرة في سفح اكمة وراءها سلسلة من الجبال متسعة

الجوانب بُنيت في الجبل المتوسّط حتى تكون بابًا يلج الانسان منهُ الى تلك الاكمة التي تحيط بها اسوار عالية امّا الدور فيها فلها وجهة عليا تلتصق بسقوفها وهي متراكمة على خط مستدير. فابتهج الفتى من هذا المنظر ابتهاجاً شديدًا بيد انهُ رأى عند مدخلها مشهدًا خلاف ما رأى قبيل ذلك فانهُ كشف على سهل واسع انبسط امامهُ لا يقف الطرف لهُ على آخر. فتبدل شعورهُ عندما نظر تلك المفازة الشجواء كأنها امُّ التنائف لا يتحرّك فيها غصن ولا يُسمع لها صوت ولا يرى فيها سوى قليل من البيوت التي يبعد بعضها عن بعض بعدًا شاسعًا ولاح لهُ ان القرويين مشغولون في غابة على جانب ذلك الموضع تراءت لهُ اطرافها عن بعدٍ. فجاء هذا المهمه القفر ضغثًا على إبالة واثّر في ذهن الفتى تأثيرًا اسودَّ لهُ وجههُ وانكمش فؤادهُ

لكنهُ شدَّ عزيمتهُ وجمع قواهُ وجدّ بالسير لا يلوي على شيء. حتى انتهى الى جَذر شجرةٍ مقتلعة مطروح على حافّة الطريق. فرأى عن بعد رجلًا جالسًا ينظر اليهِ وعليهِ ثوب خلق بالٍ ولهُ لحية مسترسلة لعب بها البياض غير انّ سمات وجههِ الساطعة ولونهُ الاشهب كانا يدلّان على عزيمةٍ فيهِ يندر مثلها في امثالهِ من الكهول وكان متوكّأهُ على عصا اشبه بالعكاز وقد استلفتت انظارَ الفتى غضونُ جبينهِ الواسع وعيناهُ الرماديّتان اللتان تقدحان شررًا فرآهُ لابسًا قبعة مثلّثة الزوايا كالجنود ملتفًا بلبدٍ مرقع وجميع ما تحتهُ من الاثواب على شاكلتهِ. امّا ذلك الكهل فكانت تظهر فيهِ من تحت تلك الخرق نظافة تعوّدها وهو في سلك الجنديّة في عهد الشباب

فلمّا تقدّم الفتى اليهِ علم ان ذلك المسكين يمشي على ساق من

خشب فاهتمَّ بامرهِ واخذتهُ شفقة عليهِ ومدَّ يدهُ الى جيبهِ ليعطيهُ قطعة من النقود فانهُ كان في قلبهِ عاطفة نحو الجنود الجرحى ورثها عن عمهِ وخالهِ اللذين كانا ضابطين في الجندية

ثمَّ اتخذ الاثنان من ذلك الجذر مقعدًا جلسا عليهِ وحينئذٍ رمى الفتى بفلس الى ذلك الفقير فظهرت على اسرّتهِ علامة البشر وقال: « جاءت هذه الحسنة في محلها ما كان اشد احتياجي اليها لاشتري ما يلزمني من التبغ والشراب فان كيس تبغي فرغ وقرعة شرابي جفّت فاصبحا افرغ من قلب امّ موسى حتى تذكرتُ ما قاسيتُ من العطش وانا في حرب مصر يوم جفّت الآبار واشتدَّ الأوار. ولكن لا شلّت يمين الشبان الذين تأخذهم رأفة على مَن كانوا ولم يفتأوا ابطالًا. بارك الله فيك ايها الفتى وحفظ لك ساقيك من الاذى »

فقال الفتى وقد استراح بجلوسهِ على ذلك الجذر: هل انخرطت في سلك الجنديّة ايها الرجل

قال: خدمت فيها عشرين سنةً لم ادع بلادًا الّا طفتها ولكنَّ ما اصبت بهِ من كسر ساقي في بلاد اسبانية الجأني الى الاوبة الى فرنسة واقعدني عن الاقدام على الاسفار الطوال

قال: يصعب عليك اذن ان تسير. — قال: لا يخدعنك ظاهري فاني وان كان لي ساق من الخشب حزت قصب السبق ان تسابقنا معًا وجعلتك تتوب عن السباق بعدها وان كنت في شرخ الشباب. فانهُ لا يمرّ عليَّ اسبوع الّا سرت اكثر من ثلاثين مرحلة وانا على ما تراني عليهِ من الهمّة والنشاط ومررت بتطوافي هذا بكثير من القرى ولا اسأل احدًا اكلًا ولا شربًا فان الله يتيح لي ذلك عفوًا واذا مسّت الحاجة احيي الليل والنهار

طاويًا الحشى على الطوى لا امضغ مضغةً ولا ابلع جرعةً فان هذه الحالة غير تلك التي كنت عليها وانا اسير في بلاد مراكش. وتعوّدت ألّا اشتري زادي وان كنت في عوزٍ الى بعض الدراهم فهذا لا يكون الّا لسدّ ما احتاجهُ من التبغ والشراب مع أني لست بسكّير

قال: يعرفك اذن كل اهل هذه الناحية ؟

قال: كيف لا وانا اشهر من نار على علم

ويذكرني قومي اذا جدّ جدهم   وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدرُ

وانا جُهينة الاخبار ومسلّي الاولاد الصغار صانع السيوف الخشبيّة والالعاب الصبيانيّة ضابط الساعات وعارف الاوقات مروّح الافكار بتصليح الاوتار ومزيل الاسقام بتوقيع الانغام وشافي الحيوان من اوبئة الزمان ورافئ القصص في الليالي ومطيّب خاطر الاهالي. فثق ايها الفتى اني اذا جعت اطرق اول باب عنَّ لي وانا فيهِ اكرم ضيف عرا. لان افتقار القرويين اليَّ اشدّ من افتقاري اليهم ولي عندهم مكانة وكرامة ولا تظنّ ان لا لبد عندي ولا سبد واني متروك من كلّ احد في هذه البلد

قال الفتى: اني لا ارى لك في مثل الطريق التي تسلكها كبير لذّة فانك معرض للشدّة والضرّاء ولاسيما في فصل الشتاء

قال: قد اشوى سهمك واخطأ حكمك فان اختلاف الفصول لا يسبّب لي الاذى واني لو شئت ان اسكن في بعض الاماكن المأهولة لكان سعى في إسكاني ثمّة الفُ صاحب وصديق وان كان ليس عندي سعنة ولا معنة غير انَّهُ ليس لي طاقة ان اقيّد نفسي بالازمنة والامكنة او أقسرها على بعض المآكل والمشارب دون بعض واني في حالتي التي انا عليها ليس لاحد عليَّ أمرٌ اذ جعلت نفسي وقفًا لعموم الناس. واراك

تضحك ممّا تسمع فلا بأس لان الواقع هو كما بسطتُ لك وازيدك فيهِ اني احبّ السرى وتعجبني السماء وهي مقمرة وربَّ خُلق فيَّ غير مطردٍ ومألوف ولكني راضٍ بنفسي ولا يحسد غدوّي امسي. ولي عند بعض القوم بعض المعروف فاني احبّ حسن الصنيع واصبح ذلك من دأبي. هذا وقد ظهرتَ لي الان ذا ادبٍ سليم النيّة صافي السريرة فان كان لك حاجة في هذه الناحية قلْ غير مكلّف فاني اقضيها لك في الحال بطيبة خاطر

فقال الفتى: ان جل ما اطلب اليك التفضّل بهِ انما هو ان تفيدني عن المسافة التي تحول بيني وبين اقرب فندق اقدر ان اصل اليهِ فابيت فيهِ هذه الليلة فانَّهُ قد اعياني السير ولم يعد لي قدرة على مواصلتهِ

فبادرهُ ذلك الجنديّ وقال: لا تخف ايها الفتى ولم يبقَ عليك الآن الّا ان تقطع مسافة ساعتين فقط واعني بقولي ساعتين طويلتين تسير فيهما حثيثًا وتجدُّ جدّ الرجال العداة

فقال: أصحيح ما تقول من انهُ لم يبقَ لي سوى سير ساعتين وانا ان صحَّ لي فراش انطرح عليهِ ابذل دونهُ نفسي

فقال الفقير: لومارست يا صاحبي الحرب لكنت الآن غير ما انت عليهِ ولكن ما لي وهذا الحديث فلا علاقة لي بهِ والخروج عن الصدد في الكلام الى ذكر الجيش. والحرب ديدنٌ أَلِفهُ الجندي منذ القدم. نعم ايها الفتى ترى بعد ما تقطع نصف مرحلةٍ منزلاً حولهُ كثير من النبات تقدر ان تبيت فيهِ وهو معروف في هذه الناحية بفندق البغّالين ولكن ليس لهذا الفندق سمعة طيّبة ولو استشرتني لأشرت عليك ان تواصل سيرك الى مدينة بوندور حيث تجد آكلًا فاخرًا وفراشًا وثيرًا واني اراك شابًّا نشيطًا متعافيًا فجدّ بالسير اليها

فنهض حينئذٍ الفتى وقال: انني اشكرك على ما ابديته لي من المعروف وها اني الان شارع بالذهاب الى حيث تدلني بحسب اشارتك واخاف ان اكون من الان متأخرًا قليلًا فان النهار في هذا الفصل قصير وقد ادركنا الليل فاستودعك الله يا صاح

ثم انبرى الفتى يعدو حتى لانت ساقاه ولعب التنفس في صدره

وما قطع هذا الفتى قسمًا كبيرًا من تلك المفازة الشجواء حتى كبر عليهِ الوهم ولم يرَ في تلك الطريق سوى بعض سائقي العربات والباعة وقد جنّ عليهِ الليل وسحب الريح اذيال الغمام على الحضيض امامهُ واشتدّ السواد وتلبَّد الدجى حتى كاد لا ينظر الطريق وكان لهُ من الجوع داعٍ للسرعة ليس اقل شدةً من داعي الراحة بعد التعب. وتذكر آنئذٍ بيت ابيهِ حيث كان جالسًا مساء ذلك اليوم امام نار مشبوبة تغلي فوقها قدر فيها بعض البقول

غير انَّهُ لم يجعل لصروف الزمن سبيلًا الى ترويعهِ بل شدَّ عزيمتهُ وتوغّل بالسير في تلك الظلمات الكثيفة. وبينما هو في هذه الحالة واذا بنور يرمي شعاعهُ بين الضباب عن بعد في تلك الصحراء فانعش منظرهُ قلب الفتى الدنف فانهُ ظنَّ بذلك انهُ وصل الى حدٍّ انتهى عندهُ العذاب ولاح لهُ بعد ذلك ان الامر لم يكن الّا كبرق خلَّب او سراب لان ذلك النور سُدِل دونهُ الحجاب وأرخى وراءهُ الغيهب جلبابًا فوق جلباب. غير انهُ لم يكن كلمح البصر حتى ظهر تكرارًا فتيقَّن الفتى انهُ قرب من منزلٍ يستريح فيهِ وقد رأى على غرةٍ خراباتٍ في تلك الارض المنقطعة فلم يشكّ انَّهُ فندق البغالين الذي كان يظنّ انهُ تجاوزهُ منذ مدةٍ طويلة

وقد حكم ان المسافة التي عليهِ ان يقطعها بعدُ بعيدةٌ فتنازع قلبَهُ من جهةٍ الرخاء والراحة ومن جهة سوءُ ظنهِ بالفندق لما سبق وعلم عنهُ من المساوئ فاخذ يضرب اخماسًا باسداس ويقدم رجلًا ويؤخر اخرى ثم قال في نفسهِ: ليس عليَّ سوى ليلة اقضيها في هذا الفندق فمهما كانت تكن لا بأس منها ولعلّ لم أُصب بتصديق ما قال لي ذلك الكهل الفقير. ومن يعلم ما يكون السبب الذي من اجلهِ نهاني عن المبيت في هذا الفندق فقد يكون ذلك ناجمًا عن اكراه مجرَّد غير مسنودٍ او يكون سببهُ انهُ طلب من اصحابهِ حسنةً فضنَّ ذلك بها عليهِ. هذا واني لم يسبق لي معرفة بهِ حتى اقف عند كلامهِ وآخذ بقولهِ

وبينما هو يفتكر في امرهِ على الصورة الموصوفة اذا بكلبٍ رمى بنفسهِ من جدار الحظيرة الى الطريق واخذ ينبح جهدهُ ثم فُتح باب الفندق وظهر منهُ شبحٌ فاذا هو رجل عريض المناكب سمينها وانتهر الكلب لساعتهِ والتفتَ بعد ذلك الى الفتى وقال لهُ بصوت رخيم: لا تخشَ ايها الفتى فان «دارا» تنبح نباحًا قويًّا لكنها لا تعضّ احدًا فلو كان «ميلور» لكنت قدّرت انيابهُ حقَّ قدرها فانهُ من الكلاب الضارية لا اتجرأ انا على التقرُّب منهُ وهو الان مربوط الرأس بسلسلةٍ من حديد في الفناء أُبقيهِ هناك لوقوع حوادث مهمَّة. واننا نقبل عندنا المشاة والخيالة فان شئت ان تنزل في منزلنا فاهلًا بك وسهلًا فانَّ ضيفنا ليس اقلّ حظٍّ من ضيف غيرنا

ولمَّا رأى صاحب الفندق الفتى متردّدًا بين الدخول والذهاب قال لهُ: ايها الفتى بِتْ عندنا هذه الليلة فان السير فيها غير موافق لان المطر قريب الوقوع

امّا الفتى فاستمالهُ كلام صاحب النزل هذا وعزم على قضاء ليلهِ في ذلك الفندق

ولما دخل الى اوّل حجرة منهُ رآها ردهةً ومطبخاً معاً وفيها مصباحٌ من اقبح المصابيح شكلًا ونورًا ورأى جميع ما هنالك من الادوات وسخًا وهو لم يتعوَّد منذ الصغر الّا على النظافة والترتيب فكيف بهِ وقد رأى الخوان مدهوّنا بالزيوت يعلوهُ الغبـار لهُ منظر تشمئز منهُ النفوس وكان ثمّت هواء وخمٌ مفسود وقد خمدت النار تحت الرمـاد وانطفأت فاستدلّ الفتى بذلك على ان صاحب المحل قلما يشعـل النار فيهِ. وتذكر حينئذٍ كلام ذلك الفقير ونصيحتهُ وندم ولات حين ندم. غير انهُ غضَّ من طرفـهِ ووضع صرَّتـهُ على احدى الخزانات هناك وانطرح على احد الفرُش وقد اعياهُ تعب الطريق

فقربت منهُ حينئذٍ امرأة صاحب الفندق وهي مثل زوجها غلاظةً وفظاظةً وعليها لباس قذر منطبق على جسمها كل الانطباق وهو من الوسخ على شاكلـة غيرهِ من الأثاث في النزل وكان يبدو في حركاتها تراخٍ وبطوء دلَّ على انها لم تتعوَّد خدمة الضيوف بعد وانَّما تظاهرت باكرام الضيف. وشرعت تسأل الفتى سؤالات شتى فقالت: هل انت آتٍ من مكانٍ بعيـد ؟ وهل تريد ان تتناول طعاماً ؟ واني لا شكّ اعدُّ لك فراشاً وثيرًا. مُر ما بدا لك

فاجابها الفتى بكل لطف على سؤالها واندفع يقص عليها ما فعلـهُ بذلك النهار وقد تروَّحت نفسهُ بذلك واطلعها على الاسباب التي حملتهُ ان يسافر ماشياً غير انهُ لم يذهل ان يخفي عليها ما عندهُ من الدراهم. امّا تلك المرأة فقد انخـدعت بما رأت في حركات الفتى وحديثهِ من الأدب

والظرف وظنَّت انـهُ من الثروة على جانب عظيم. ولمَّا كانت تعوَّدت ان تبذل من الاعتناء في الخدمة بقدر ما كانت تتأمَّل كسبهُ من المال نشطت للحال نشاطاً وفرشت من الهمَّة بساطاً واخذت تعتني بطبخ الطعام

ولم يمرّ عليها برهة من الزمن حتى وضعت حزمـة من الحطب فاشتعلت وبدا منها ألسنة من اللّهب فتقرَّب الفتى من النار يصطلي عليها وقد تروَّح شيئاً فشيئاً ولم يزل كذلك حتى نسي ما مرَّ بذهنهِ من الهموم عند دخولهِ ذلك المحلّ المشئوم

وبينما هو يتآنس باهل ذلك النزل ويتجاذب اطراف الاحاديث معهم والحديث ذو شجون فاذا بضيفٍ جديد اقبل على النزل وفي يدهِ كيسٌ من جلد ودخل فظهر انَّـهُ رجل كهل عليهِ هيبة ووقار ولهُ شعر ابيض زادهُ كمالًا وجلالًا. ثمَّ وضع كيسَهُ على كرسيٍّ هناك وتقـدَّم فجلس قرب النار وحينئذٍ طفق صاحب النزل وامرأتـهُ يكثران من عبارات الترحاب والتكريم وهو غير مبالٍ بهما. ثمَّ قام بعد ان اصطلى على النار واخرج من جيبهِ بعض اوراق ظهر انَّها مهمَّة جدًّا وبدأ يفحصها بتمعن ودقَّة

وفي اثناء ذلك كان الفتى يقلِّب الطرف في هذا الرفيق الذي اتاحهُ لهُ القدر وقد علم من غير ان يحتاج الى علم الفراسة ان ذلك الرجل من علماء الحقوق والفقهاء

وكان ذلك الرجل في واقع الحال كاتب السجلات في ذلك القضاء راسخ القدم في الشريعة معروف عند الخاصَّة والعامَّـة انهُ من اهل الإقدام والفضـل ملتزم جانب الحقّ والعدل. وقد انفذه قاضي تلك الناحية الى منزل رجلٍ في بعض القرى احب ان يسجل وصيَّتهُ فعـاد

منها حاملًا صرّةً من الدراهم والدنانير استلمهــا حتى يحفظها في جمـلة الامانات عنده وقد اعاقه في سيرهِ ما تجشّمهُ من وعر الطريق ولم يختر السُرى خوفًا من لصٍّ عرا اذا ما عسعس الليــل فيسلب المال منه . فعرّج على فندق البغّالين وعمد على المبيت فيه

وقصارى الكلام ان تلك الظروف السيئة التي دفعت هذين الضيفين ان يمسيا في ذلك الفندق اعدّها صاحب الخــان من اسباب الكسب بحسبما قال الشاعر: « مصائب قومٍ عند قومٍ فوائد » لانه كان من النادرات ان يأوي احد من ابناء السبيل الى ذلك النزل المنفرد الذي ما كان يطرق بابَهُ الّا بعض اهل السابلة يحطّون فيهِ عصــا الترحال ريثما يأكلون ويشربون وتأخذ مطاياهم قليلًا من الراحة ثمّ يترملون ويتوجهون الى حيث يقصدون

وفي تلك الاثناء تبادل صاحب الفندق وامرأته بعض الاشــارات والرموز بصورةٍ خفية امكن للفتى ان يدركها لو كان منتبهــًا لكنهُ كان مستغرق الفكر في إعداد لوازم راحتهِ منهمكًا بحاله انهماكًا لم يقوَ معه على الاصغاء الى ما انعقد من المناوأة في تلك المؤامرة التي جرت بين المرأة وبعلها وهو في غفلةٍ عنهما

وبادرت بعد ذلك تلك المرأة فوضعت على طبــق واسع زوجين من الصحون مسحتها كيفما اتّفق لها ثم جاءت بارغفةٍ من الخبز وقليل من النبيذ وقطعة من لحم الخنزير وبعضًا من الاسماك

والكلب الذي استقبل الفتى بالنباح كان يدور حول تلك المائدة ويطوف شامخًا بانفه وقد اخذتهُ هزّةٌ من الطرب وشرهت نفسه وانعقد املهُ انه يفوز بحصةٍ من تلك المآكل وقد مرّت مدة ولم يلتهم شيئــًا

يسكن بهِ ما اصابهُ من الجوع فانه طاف حول تلك المائدة اولًا وثانيًا وثالثًا ريثما مكّنتهُ الفرصة فنهض على رجليه وتطاول فالتهم رغيفًا وهرب بهِ الى زاوية خالية

اما صــاحبة الفندق فقد لاحظت ذلك وقامت مسرعة وتناولت سفودًا حاميًا وقد تأثرت الكلب الذي ارتكب جرمًا مشهودًا وهي تزعق بهِ زعقًا وكادت تتميز من الغيظ ثم قالت: ايها الكلب اللئيم تبًّا لك فانك طالما حاولت ان تذوق طعم الخبز وانا ســاذيقك طعم الحديد الحامي فلا تعود بعد ذلك الى هذه الفعلة الشنعاء

قالت وطفقت تضرب الكلب بالسفود حتى أشبعتهُ ضربًا وهذا لم يلتوِ بل لبث على اخذتهِ وقد حملق بالمرأة وهو يزأر زئيرًا اخافها منه فولّت الى الورآء وصاحت الى بعلها تطلب المدد

وكان ذلك امرًا من شــأنه ان يضحك الثكلى فضحك من اجله كاتب السجلات اما الفتى فاخذ بناصر الكلب وانتصب يحامي عنــه فقال: يا خالة ان هذا الكلب لم يعد لهُ طاقة على تحمّــل الجوع وانتِ اجتزيتِ منه جزاءً كبيرًا على ذنبٍ صغير فجاء خارجًا عن القياس لا يقبل بهِ احد من الناس

فقالت: ان ما قلته لعجب ايها الفتى . اترى من الصواب ان يرمى الخبز الابيض الى الكلاب ؟ فالظاهر يا صــاح انك اصبت ثروةً بلا عناء وتعب

فقال: انني لا اعرف جنس الخبز الذي تطعمينه الكلب هذا ولكن الامر يدل على انكِ تغذينهُ بضرب العصيّ ولا اخال ان ذلك من ذوقهِ فبالله عليكِ دعيه يأكل هذا الرغيف وانا ادفع لكِ ثمنه مهما بلغ

فقالت: قبلتُ ولم تتمالك من كظم غيظها عليه

ودخل بعد ذلك بعلها فقصت عليه ما جرى بينها وبين الكلب والفتى فقام ورفس الكلب رفسة شديدة جعلتهُ يترك بعدها الرغيف ويتوارى فتناولهُ حينئذٍ واعادهُ فوضعهُ على الطبق. ثم نظر الى الفتى شزرًا وقال: «لك الخيار ان تفعل ما بدا لك». فمدَّ الفتى يدهُ واخذ الرغيف وشرع يصفر للكلب فتقرب منه وهو على حذر كانهُ خائف ان يكون في ذلك شركٌ يقع فيهِ فتجنبه وقام بعيدًا امامه. فطفق الفتى يكسر من ذلك الرغيف ويرمي امام الكلب والكلب يأكل حتى نفذ فقال الفتى: ان الجوع عضَّ الكلب بنابه فأنهكه

فقال كاتب السجلات وقد آنس من الفتى رقة ولطفًا: اصبتَ ايها الفتى فان الكلب اوشكت قواهُ تخور جوعًا. ويعجبني ان تأخذ الشبان شفقة على الذي ألمّت بهِ المصائب واني اراك رقيق القلب كريم الطبع واني واثق انك لا تردّ دعوتي لك الى تناول الطعام معي الآن

قال فاحنى الفتى رأسهُ دلالة على قبوله تلك الدعوة مع الشكر فجلسا معًا حول مائدة الطعام وكان صاحب السجلات يلاطف الفتى ملاطفةً تشفُّ عن شدّة تعلقه بهِ

واخذ يسأله عما جرى لهُ من الحوادث فارتاح اليهِ الفتى وقصَّ عليهِ جميع ما جرى لهُ من اوله الى آخره وكان ذلك الكاتب صاغيًا اشد الاصغاء لما كان ينقله لهُ الفتى من الاحاديث وهكذا فرغا من الاكل وتقدما الى النار فجلسا حولها. وحينئذٍ اخرج كاتب السجلات لفافةً من التبغ فأشعلها وقدم للفتى لفافة اخرى فاخذها هذا وشكر بلطفٍ وادب

ثم قال لهُ الكاتب: ان هذا الكهل الفقير الذي التقيتَ بهِ في الطريق

لنادرة زمان أليس هذا حكمك فيهِ ؟

فقال الفتى: ان القليل الذي علمتهُ منه جعلني ان اتعجب منه كثيرًا فانهُ يقبل صدقة المحسن ولا يرى انهُ فقيرٌ

فقال الكاتب: هذا واقع حاله ولا عجب فان الحسنة تأتيه عفوًا بلا طلب وان في ذلك سرًّا لا تدركهُ ألّا اذا وقفت على قصته وعلمت ما نابه من النوب ولا بد ان يكون حكى لك عنها او اطلعك على شيءٍ منها

فقال: لم ادع لهُ فرصةً للمقال لاني حينئذٍ كنت مشغول البال

قال: اني اتأسف على ذلك فلو جعلت لهُ مجالًا للتكلم لكنت عجبت مما هنالك فان حياته كناية من نسيج كلُّهُ تحف غرائب يبسطه للطالب وهو باسم الثغر منشرح الصدر فانه نديم هذه الناحية وقد اخذ بمجامع قلوب اهلها

ثم توسع الكاتب بالكلام عنه حتى يزيد الفتى بهِ علمًا وبعد ذلك قال لهُ: قد آن وقت الراحة ومن نيتي ان ابارح هذا الفندق غدًا عند طلوع الفجر غير اننا نقدر قبل الخروج منه ان نتناول الطعام معًا فوافقهُ الفتى على دعوته هذه فتوافقا واستودع كل منهما صاحبه الله وافترقا ليأويا الى حجرتيهما

وتتبَّع الكاتب بعد ذلك خطوات صاحب الفندق الذي جاء يقودهُ الى الحجرة التي اعدَّها لمنامهِ فسار وراءهُ وهو حاملٌ تحت ابطهِ كيس اوراقهِ الذي لم يظلّ في جانبهِ مدَّة تلك المسامرة

وانبرت المرأة ايضًا فحملت مصباحًا ومشت ومشى الفتى وراءها حتى انتهت الى آخر الممشى فوصلت الى حجرة في طرف البناء لها سلَّم من الخشب الناخر. فلمّا وقف الفتى هناك داخلهُ العجب لما رأى ان

صاحب الفندق قد فصلهُ عن رفيقهِ وقد ساءهُ ان يرى الباب بلا قفل ولا موصد فخاف غير انهُ كتم خوفهُ ولم يُبدِ سوى حركة تدل على انهُ غير راضٍ من المبيت في ذلك المحل

فقالت لهُ المرأة « أساءك ان ترى بابك لا يُغلق غلقاً محكماً » واخذت حينئذٍ

تعطيهِ من طرف اللسان حلاوةً   وتروغُ منهُ كما يروغ الثعلبُ

الى ان قالت: « نم بامانٍ ايها الفتى ولا تخشَ امرًا مكروهاً فهيهات ان يدخل اللصوص هذه الديار أوليس عندنا كلبانا « دارا » و « ميلور » فانعم بهما حارسين متيقظين يطوفان حول الدار فيحميان الذمار »

فقال: « حسبنا الله ايتها المرأة واسعد الله مساءكِ ». ولم يرَ من المناسب ان يعلمها انهُ يخاف من هجوم اللصوص اقلَّ مما يخاف لو تفقدهُ اصحاب الفندق ليلاً غير ان ذلك مرَّ في مخيَّلتهِ كالوهم ولم يقم عندهُ ما يؤيدهُ فانصرف فكرهُ الى معدَّات راحتهِ وغلب عليهِ النعاس

وكانت الحجرة واسعة الارجاء خالية من الاثاث لا ترى فيها سوى بعض قطع من الزرابي مدلاة على الجوانب التي لم تكن مطلاةً بالكلس وقد شعر الفتى بهواء رطب ينفح من شقوق الزجاج المكسور الذي سُدَّ بالواح تكسَّرت على قدم العهد وعلم انهُ كان افضل لهُ ان ينام على التبن في الاهراء او يلقي ظهرهُ على حجر في الحظيرة بين المواشي من ان يقضي ليلتهُ في تلك الغرفة على سوء حالها ولو لم يثقل النعاس على جفنيهِ ويتحكم الغمض عليهما لرأى ما جعل نفسهُ تتقزَّز من الاقذار والاوساخ

فما دخل تلك الحجرة حتَّى استلقى على فراشهِ فيها كالصريع غير

انهُ مرَّ بخاطرهِ انهُ لم يصلِّ بعد صلاة العشيّ وتذكر وصيَّة امهِ بهذا الشأن كما حتمت عليهِ ان يقرأ كلَّ يوم صحيفة من كتاب الاقتداء الذي يحملهُ فقال: « اللهمَّ ان التعب قد انهك قواي حتى امسيت لا اقدر على الحركة غير ان فروضي تدعوني الى النهوض الى الصلاة والشكر على ما اوليتني من النعم في هذا النهار وانا لا اريد ان اكون عقوقاً ناكر الجميل. هذا واني مضطرٌّ الى استمداد عنايتك اللهمَّ حتى تحرسني في هذا الليل الذي يطوي رداء الظلمة على عبدك هذا الضعيف »

فثابت اليهِ همتهُ وتشدَّدت عزيمتهُ فنهض من فراشهِ وركع على الارض وصلى صلاة الفرض كما كان يصليها في بيت ابيهِ

ثمَّ مال بهِ الكسل والتراخي الى نبذ كتاب الاقتداء وكاد يرمي بهِ الى الارض وينام الَّا ان الله تعالى الذي يرعاهُ بعين عنايتهِ لم يهملهُ بل جعل فيهِ نشاطاً وهمةً غلب بهما الميل الذي لوى بهِ الى تأخير القراءة وتأجيلها الى يوم ثانٍ ولم يدرِ ان ذلك كان من عناية الله بهِ إشفاقاً عليهِ من ان تمتدَّ اليهِ يد الغدر فيذهب فريسة الشرّ. فقال: « لا بدَّ لي من اتمام واجباتي مهما كان من ضعف حالي وقد شرطتُ على نفسي ألَّا انام حتى اتلو صحيفة من كتاب الاقتداء والشرط املك عليك ام لك »

قال هذا ثمَّ جمع ما بقي فيهِ من القوى حتَّى تمكن من تبليل عينيهِ بقليل من الماء واصلح ذبالة السراج حتى تبيَّنت لهُ الحروف وقد رفع العلامة التي فيهِ ووضعها على رفٍّ فوق رأسهِ وشرع يقرأ في كتاب الاقتداء

ولا يخفى ان كتاب الاقتداء بالمسيح كتاب فريد في بابهِ عجيب في خطابهِ وجوابهِ يجد فيهِ القارئ تعزيةً وسلوى ودواء عند وقوع البلوى فانَّ

واضعهُ اودع فيهِ من الحكم القدسيَّة والتأسيات النفسيَّة ما يقف عندهُ كل كاتب في باب العجز والقصور فانهُ يفعل في النفوس ما يحقّ ان يقال بعدَهُ : لا عطر بعد عروس . ترى فيهِ دواء لدائك وفرجًا في بلائك فانهُ يجيب السائل على سوءالهِ ويكشف لهُ النقاب عن جميع احوالهِ فيملأُ قلبهُ سرورًا وافراحًا وبهجة وارتياحًا وهو الهاتف المنبئ بالخير والحرز الواقي من الضير . ولنا في هذا الفتى برهانٌ على ما تقدَّم فانَّهُ ما شرع يقرأُ فيهِ حتى انقشعت غيوم الهموم التي تكاثفت على ذهنهِ ولم يشعر بانحطاطهِ ووهنهِ لاسيا اذ قرأ هذه العبارة وهي :

« كن سليم الضمير وثق بالله والله يحرسك من الاذى فان الانسان اذا ما حرسهُ الله وشملهُ بعنايتهِ اصبح في امن من صروف الحدثان » على حدّ ما قال الشاعر :

واذا العناية لاحظتك عيونها   نم فالمخاوف كلهنَّ امانُ

فلمَّا قرأ الفتى هذا انتعشت نفسهُ وسرَّ من تغلُّبهِ على كسلهِ حتى تمكَّن من قراءة فرضهِ قبل ان يكحل عينيهِ بالوسن ويستسلم لداعي النوم ساكن الفؤاد

ثمَّ مدَّ يدهُ الى العلامـة حتى يضعها في الكتاب واذا بريح هبَّت فاطارتها في سماء الحجرة ثمَّ رمتها في احدى زواياها بعيـدًا والفتى لم يدرِ بالمكان الذي وقعت فيهِ فقام يفتش عنها . ولمَّا لم يهتدِ اليها ظنَّ انَّ الريح نسفتها فدخلت تحت الفراش فهمَّ ان يرى ما هنالك فوضع السراج على الارض وانكبَّ على صدرهِ ومدَّ يدهُ تحت الفراش فاذا بالحضيض حفرةٌ فزحف اليها ليرى ما هنالك فوجد ترابًا مبثوثًا على جرمٍ لم يعرف حقيقتهُ فازال التراب عنهُ قليلًا وما لبث ان صاح : « يا للداهيـة الدهياء » . فان

انامله كانت قد وقعت على شبه جسم بارد فقرَّب السراج واذ بالجسم هو جثة رجل مذبوحٍ حديثًا لم يزل دمهُ طريئًا عبيطًا

فلبث الشاب كأنَّ صاعقـةً انقضَّت على امّ رأسهِ فاقشعرَّ بدنه وارتعدت فرائصـهُ وقفَّ شعرهُ وسال على جبينـهِ عرق بارد وكادت انفاسهُ تخمد من شدَّة ما استولى عليهِ من الخوف والدهشة

وحاول ان يصرخ ويستغيث فخانتهُ قوَّتهُ اذ يبس لسانهُ في حلقهِ ولم يشك انهُ هالك لا محالة وقد سمع طنين الموت في اذنيهِ

فلبث برهة من الزمن كانهُ غائب عن الوجود ولمَّا مضت عنهُ هذه الأزمة الشديدة وانحلَّت عقدة لسانهِ قام على حيلهِ لكنَّهُ شعر بان قواهُ تضعضعت وسقط على الحضيض فوجَّه عينيهِ الى السماء وصلى ولسانهُ يتلجلج فقال : « اللهمَّ أفي هذا المكان حلَّ اجلي وحانت منيَّتي أفيهِ اموت ميتة هذا المسكين الذي يخبط بدمهِ امامي . اللهمَّ اشمل بعنايتك ورحمتك عبدك هذا الذي ركب شططًا مشومًا ساقهُ الى الوقوع في يدي القتلة المارقين هب لي يا الله قوَّة ونفّس كربي ومهّد لي طرق الخلاص من هذه التهلكة التي تورَّطتُ فيها »

ثمَّ القى بنفسهِ على الفراش وقال : « يا الله ان هذا العقـاب الذي عوقبتُ بهِ لحقٍّ وعدل فلتكن مشيئتك »

قال هذا واخذ يستعدُّ للموت مستسلمًا بين يدي الرحمان . فشعر ان عقلهُ ثاب اليهِ وزال عنهُ الخوف وتأيَّد بمددٍ من السماء بهِ اعتدلت بصيرتهُ فاخذ يفكر بالحيلة التي ينبغي ان يحتال بها ليتخلَّص من اشراك المنون التي وقع فيها فقال في نفسهِ :

على المرء ان يسعى بما فيهِ نفعهُ   وليس عليهِ ان تتمَّ المقـاصدُ

واخذ يقدح زناد الفكر ليرى الوسائل التي بها يقوى على المدافعة حينما يهجم عليهِ اولئك القتلة او يجد مهربًا او مناصًا ينجو بنفسهِ منهُ

واوَّل ما خطر على بالهِ ان يطرق باب ذلك الكاتب صديقهِ ويخبرهُ عن الخطر العظيم الذي ادركهُ وهو في غفلة عنهُ ثم رأى ان المسافة بينهُ وبين الكاتب بعيدة وانهُ لا خبرة لهُ في الطريق التي تؤدّي اليهِ في ذلك الممشى الطويل وانَّهُ اذا ما نزل سلَّم الخشب لا بدّ من حركةٍ او صوت ينتبه لهُ الغافلون. ورأى ان ناداهُ فعلى الدنيا السلام

فلمَّا ضاق ذرعهُ وقلَّت حيلتهُ عمد الى الهرب وطفق يفكر في كيفيتهِ وزمانهِ لعلَّهُ يجد بابًا للخلاص وحكم ان صاحب الفندق وزوجتهُ لم يناما تلك الليلة الهائلة وانهما يتنبَّهان عند وقوع صوت من الاصوات او حركةٍ من الحركات وانهُ لا يبعد ان يكونا منتظرَين الى نصف الليل حتى يقدما على ارتكاب الجناية فيفتكان بهِ فتكًا ذريعًا

فجعل الفتى يقوّي العزم المتذبذب ويتثبت ريثما يجمع عقلهُ فيحتال لنفسهِ حيلةً يتخلَّص بها وقد رأى نفسهُ انهُ على شفا جرفٍ هارٍ. وبينما هو على هذه الحالة من اليأس والقنوط خطر لهُ ان يحتال حيلة سمعها من ابيهِ عن احد السابلة فعمد الى احد منافذ الحجرة ففتحها فاشرف منها على ما هنالك فتراءى لهُ الفضاء وكان قريبًا من الحظيرة والزريبة وكان المنفذ عاليًا غير انَّهُ ظنَّ انَّهُ يقدر ان ينسلَّ فيتملَّص ولم يكن عليهِ الَّا ان يثب وثبةً لم يرَها تستحيل عليهِ

فعاد الى الحجرة ووضع المصباح. وهمَّ بسحب تلك الجثَّة من مكانها. فلمَّا اخرجها من حفرتها وضعها على الفراش بشجاعة ما عهدها

في نفسهِ الَّا ذلك الحين وقد نسب ما وجدهُ في نفسهِ من القوَّة الى عناية الله في عبيدهِ وعلَّق عليهِ سرًّا سماويًّا

ثمَّ نظر اليها فرآها جثة شاب في مقتبل العمر فتك صاحبا الفندق بهِ من عهد قريب جدًّا لانَّ الدم الخارج من حنجرتهِ بالذبح لم يزل رطبًا وحكم ايضًا انهما عارضاهُ في نومهِ فذبحاهُ ذبح الشاة ورمياهُ تحت الفراش متربّصين حلول فرصة ينتهزانها فيرفعان تلك الجثة من المكان الذي هي فيهِ

فسبل الفتى حينئذٍ الغطاء عليها وهي ملقاة على فراشهِ والبسها قبعتهُ حتى اصبح الميت اشبه بالحي النائم وترك حوائجهُ امام الفراش واطفأ مصباحهُ وانسلَّ ينسحب الى موضع الجثة التي اخرجها وانقلب فيهِ متزويًا

ومن المعلوم ان الفتى امتنع عنهُ النوم وتعذَّر عليهِ وانهُ لبث جامدًا ناصتًا صاغيًا كل الاصغاء يراقب اخفَّ الحركات في ذلك الليل الهائل وقد مرَّ عليهِ وهو على هذه الحالة ساعتان من الزمن واذا بالساعة دقَّت فكان نصف الليل

وحينئذٍ لمح من خلال الباب شعاعًا من النور وسمع بعدهُ صرير الباب وصوت خطوات ارجل تدنو اليهِ وكان الداني حاملًا في يدٍ سراجًا ضعيف النور وفي الاخرى آلةً جارحة اشبه بالساطور

وضرب صاحب الفندق النائم ثلاث ضربات ارتجَّ التختُ منها فوقعت على جثة باردةٍ وهو يظنّ انَّهُ يضرب حيًّا

فعلم اوانئذٍ الفتى الخطر العظيم الذي كان متعرِّضًا لهُ وسمع في تلك الاثناء قائلًا يقول: «أ اجهزت عليهِ». وكان القائل امرأة صاحب الفندق نفسها وكانت واقفة في الباب تنظر بعلها الذي اجابها وقال:

« نعم اجهزتُ عليهِ » ثمَّ نكص مفتخرًا بأنهُ اتقن الطعن من برهة فصار ضربهُ صائبًا محكمًا

ثمَّ اردف: « ان هذا الفتى قضى ولم يبدِ حراكًا كأنهُ نعجة وديعة . امَّا السابق فكان قادرًا وقاومني مقاومة شديدة واتعبني امرهُ . غير انهُ ما لنا وهذا الحديث ولنمشِ على مهل بغير صوت فان امر الضيف الثاني يهمُّنا ايضًا فاذا ما اجهزتُ عليهِ اعود ويعود معي الخادم فترفع فريسة اليوم وفريسة البارحة التي لا بدَّ ان تكون ضجرت في محلّها ». قال ذلك وضرب برجلهِ الى جهة الفراش فمسَّ ساعد الفتى الذي اوشك ان يُقضى عليهِ من شدَّة الخوف ولبث وقد خمدت انفاسهُ كأنهُ قطعة من جماد لانهُ لو حانت من اللص التفاتة الى ما تحت الفراش او لو سنح لهُ ان يرى فريستهُ لكان قُضي على الفتى لا محالة لكنَّ الله وقى اليتيم الذي صلَّى اليهِ فاستجاب صلاتهُ

ثمَّ انَّ المرأة دعت حينئذٍ بعلها وقالت لهُ: « لا تُضع الوقت بالمحال فانهُ يهمني ان استحوذ على كيس الدراهم والدنانير ومن الفطنة والحكمة ان نتمَّ الامر الآن مرة واحدة ولا نعود اليهِ غير مرَّة ». قالت هذا وتقدَّمت الى الامام فتبعها بعلها وصارا يمشيان هَمسًا على رؤوس الاصابع حتى لا يحسَّ بهما كاتب السجلات وهما طمعان في طلّ دمهِ والاستيلاء على ما يحملهُ من المال غنيمة باردة

امَّا الفتى فخرج من الوكنة التي كان مختبئًا فيها ونهض على الاقدام مذعورًا والقى بنفسهِ الى المنفذ المحكي عنهُ ومنهُ وثب الى فناء الدار وثبة واحدة وهو خافق القلب ضائع اللبّ كأنهُ مختلّ الشعور فوقع على مزبلة هناك

غير ان الكلاب أوجست بما سمعت من صوت سقوطهِ فطفقت تنبح نباحًا دلّ على هربهِ وانهزامهِ فارتعب المسكين وظنَّ انَّ الكلاب ستفترسهُ حيًّا لا محالة وتوهَّم ان ملاك الموت لاقاهُ حينئذٍ وانقضت انفاسهُ المعدودة وتصرَّمت حبالهُ المشدودة . وقال: « هذا هو القدر المحتوم قد حلَّ الاجل وخاب الامل » واغمض جفنيهِ مليًّا دعوة رسول الموت

لكنَّهُ لم يلبث ان استولت عليهِ الحيرة والعجب عندما رأى ان النباح انقطع انقطاعًا تامًّا وتلاهُ سكون وسكوت قويت بهما الوحشة في ذلك الليل الدامس . وما زادهُ اندهالًا انهُ رأى الكلب الذي هجم عليهِ ليرديهُ انقلب يتحبَّب اليهِ بلحس يديهِ وما كان ذلك الكلب غير « دارا » فانها عرفت محاميها فانتهزت هذه الفرصة حتى تفيهُ حقَّهُ من الشكر على معروفهِ لما سبق منهُ من الحنان لها والشفقة عليها مساء امس لمَّا فعلت ما فعلت من خطف الرغيف الذي لم يزل طعمهُ تحت اضراسها . امَّا الفتى فسكن جأشهُ قليلًا واخذ يخطو وهو لا يدري الجهة التي يسير فيها حتى اهتدى الى باب الدار الذي كان يطوف فيهِ

فتملَّص منهُ الى الزريبة وعمد الى بابها المؤدي الى الخارج ثمَّ حاول ان يفتحهُ واذا بصاحب الفندق منتصبًا امامهُ وفي يدهِ مصباح . فانهُ ما سمع نباح الكلب حتى خامرهُ وداخلهُ الخوف فاقبل مهرولًا الى الزريبة بينما كان الفتى مشغولًا يطلب من الله ان يهديه الى الموصدة فيفتح باب الفرج امامهُ . فلمَّا رأى اللصّ الفتى وهو كالمجنون من الانكماش والتلاشي ولونهُ اصفر كالشمع وظهرهُ مستند الى الحائط ملصوق بهِ وفرائصهُ ترتعد من شدَّة ما المَّ بهِ من الرعب كانهُ في هذه الحالة شبحٌ او طيف خارج من القبور عرفهُ انهُ هو الفتى الذي ضربهُ بخنجرهِ قبيل ذلك ببرهةٍ

وجيزة فارتدَّ الى الوراء عفوًا وقد انفتح فوهُ واندلع لسانهُ من الهلع وترك المصباح فسقط من يدهِ ورجع يركض الى الردهة الكبرى معتقدًا انَّ الفتى نُشر بعد الموت وعاد بعد الفوت . والفتى مع ذلك عامل على فتح الباب وقد تجدَّدت فيهِ القوى ولم يبرح يعالجهُ حتى نجح وفاز بمطلوبهِ

فلمَّا خلا لهُ الجوّ لبث برهةً متردّدًا بين اختيار الهرب او الاختفاء. فقال في نفسهِ : « ان صاحب الفندق يتعقَّبني اينما ذهبت فيدركني فالرأي عندي ان اختفي في احدى الزوايا والحُفَر عوضًا عن ان اخبط في هذا المهمه القفر خبْط عشواء »

قال هذا ورمى بنفسهِ على كداديس متراكمة بعضها فوق بعض على مقربةٍ من تلك الخرابات ظنًّا منهُ انَّهُ لا يخطر على بال احد اختفاؤهُ في محلّ مجاور لمحلّ الفاجعة ألا وهو ذلك الفندق المشؤوم

وما كان من صاحب الفندق انهُ ذهب فقصَّ رؤياهُ على امرأتهِ ففهَّمها الامر واخذت تقدح زناد الفكر للوصول الى ما تتلافى بهِ الخَطْب فتخلص من وقوع مكروهٍ تخافهُ خوفًا عظيمًا . ولذلك صعدت عجلى فدخلت حجرة الفتى ولم يَفُتها بعد النظر انَّ الفتى ولَّى الادبار راكبًا مطيَّة الظلمة في ذلك الليل الداجي ولم يخفَ عليها ما احتالهُ لنفسهِ حتى تمكَّن من الفرار وخلَّى الدار تنعى مَن بناها

ففار فائرها وهاج هائجها وصاحت ببعلها ان يتعقَّبهُ في الحال والَّا حبطت المساعي وخابت الآمال واتَّسع الخرق على الراقع اذ تدري بهما الحكومة

امَّا بعلها فرأى ان الدائرة تدور عليهِ وقد تضرَّم واحتدم لما ابداهُ الفتى من الخديعة واقسم ان « والله لأُلقينَّ القبض عليهِ حيًّا كان او ميتًا »

ثمَّ لاح لهُ انَّ الفتى قطع مسافة بعيدة موليًا الادبار عن تلك الديار ولم يعلم ان بينهما قاب قوسين او ادنى وقد شرع يحضُّ الكلبين على تأثُّر اعقابهِ حتى يدرك منهُ الوطر والَّا اوسعهما ضربًا . امَّا « دارا » فعصت امرهُ ولم تلبِّ طلبهُ وقد سمعها الفتى وهي تُعلي اصوات الشكوى تحت ضربات العصي . الَّا انَّ صاحب الفندق تركها وصاح يدعو « ملُّور » وقال : « لم اذخرهُ الَّا لمثل هذه الشدَّة » . وانتهر الخادم وامرهُ ان يحلَّ ملّور من وثاقهِ ويدفعهُ وراء الفتى الهارب

فلمَّا سمع الفتى باسم « ملّور » دبَّ الرعب في بدنهِ اذ ذكر الكلب الضاري الذي حدَّثهُ عنهُ صاحبا الفندق في اثناء تلك المسامرة وقالا عنهُ انهما لا يفكَّان عقالهُ الَّا للملمَّات الامور والشدائد فندم على ترجيحهِ الاختباء على الادبار وقام يعدو عدوًا عنيفًا وهو لا يلوي على شيء . حتى اعياهُ امرهُ وخارت قواهُ وشعر بالم في خاصرتهِ لم يقوَ معهُ على التقدُّم فوقف واسند ظهرهُ الى شجرة هناك وقد استولى على قلبهِ الحزن الشديد وكادت تزهق نفسهُ من التعب

ثمَّ رأى وهو في هذه الحالة ضوء مصباح يتقرَّب اليهِ . فعلم الفتى ان الكلب لحقهُ على الاثر وانهُ كيفما اتجهَ هالك لا مناص لهُ من الموت الاحمر

فاظهر من الضعف قوّة وجدَّ في الهرب مرةً ثانية

غير انهُ لم يقطع مسافة بعيدة حتى صرخ صرخة عظيمة وسقط في خندق حُفر في طريقهِ سقطة ميتٍ فما رأى نفسهُ بعد ذلك الَّا مطروحًا على المهيع العام وقد دنا الكلب اليهِ هو واصحابهُ وكاد يفترسهُ واذا بضربةٍ حلَّت على امّ رأس ملُّور فانطرح على الحضيض يخبط حتى خمدت انفاسهُ

وحينئذٍ سمع الفتى قائلًا يقول في جانبهِ: ان هذا الكلب آلى على نفسهِ ألَّا يعضّ احدًا منذ الآن

فصرخ الفتى: بحقّ الانسانية والمروءة أجرْني ايها الرجل ممَّا دهاني

— لبَّيك يا غلام لا تخشَ امرًا فانَّ عكَّازي هـذا الذي اودى بالكلب يكسر اقحاف من اضمروا لك سوءًا

فنظر الفتى الى الرجل فاذا هو ذاك الكهل الفقير ذو الساق الخشبي الذي اكرم عليهِ ببعض الدريهمات في صباح امسهِ. فتقدَّم اليهِ ولاذ بحقوهِ فسكَّن الكهل جاشهُ وقال لهُ: تجلَّد ايهـا الغلام وكن ثبت الجنان جريء الصدر

وفي تلك الساعة اقبل صاحب الفندق وخادمهُ غسبار ليُجهزا على الفتى وهمـا يحسبان ان الكلب اهلكهُ. فما اشدَّ ما كان اندهالها اذ شاهدا الكلب مقتولًا ورجلًا آخر غريبًا يكتنف الفتى ففكَّرا في الرجوع على الاعقاب غير ان غسبار احدق النظر فرأى ان ذلك الرجـل الغريب لم يكن الَّا شيخًا ابيضَّت لِمَّتهُ وضعفت همَّتهُ. ثمَّ تقرَّب اليهِ وعرفهُ فصاح بصاحب الفندق: لا تخفْ إنْ هذا الَّا الصعلوك يعقوب انني وعرفتهُ حقّ المعرفة فالويل لهُ فانَّـهُ هالك لا محالة وهذا جزاء كل من يتدخَّل بما لا يعنيهِ من الامور

قال هذا وجرَّد كلّ منهما سيفهُ وهجما على يعقوب

بيـد انَّ يعقوب لم يكن نَسِي لعب السيف الذي تعوَّدهُ في حومة القتال فانهُ حمى نفسهُ بعكَّازهِ وردَّ عنهُ بحذاقة غريبة ضربات هذين العدوَّين الجريئـين وذبَّ عن الفتى المستجير الذي كانت خارت قواهُ لا يستطيع حراكًا وصاح بهما صيحة عظيمة وقال: تبًّا لكما أيُّهـا اللصان

الخبيثان فانَّ حياتي بحياتكما ولا اموت حتى اذيقكما كأس الردى

ثمَّ انبرى يضرب ذات اليمين وذات الشمال وكان عدوَّاهُ يقحمان اليهِ احدهما من الوراء والآخر من الامام وهو لا يقوى على ان يدور على نفسهِ لانَّ ساقهُ الخشبيَّة كانت تمنعهُ عن ذلك فضايقاهُ وكاد يسقط عيـاءً

وبينما كان يكافح هذا الكفاح اذا بفارس يزمُّ جوادهُ ترآى بعيدًا وهو يجدّ السير نحو محلّ العراك

فصاح يعقوب ايها اللئيمان: ها انَّ الدرك مقبـل لقطع دابركما فاين الهرب واين المفرّ

فانحلَّت عزائم اللصين عند ما سمعا ان الدرك يتعقَّبهما فولَّيا الادبار واركنا الى الفرار

فقال الكهل للفتى وقد دنا منهُ: أبشر فانك نجوت من الخطر العظيم الذي كان محدقًا بك واشكر الله على انك تلاقيت بي امس العازب. فانني اعلم بامرِ هؤلاء اللصوص وسوء احوالهم وقـد خفتُ ان تكون بتَّ في فندقهم فشفقتُ عليك. فأخبرْني الآن كيف اتفق لك ان دخلت هـذا الكمين ووقعت في ايدي هؤلاء الاشرار المارقين. وما لي اراك لا تنبس ببنت شفة

ففتح الفتى عينيهِ وهو على آخر رمق كأنَّهُ لم يصدّق بنجاتهِ فقال لهُ يعقوب: عدْ الى رُشدك وأفرخ عن روعك فاني لم اعهدك جبـانًا ضعيف القلب فترى مـا كنتَ فعلت لو كنت اسيرًا في مراكش كما كنتُ انا ؟

وفي اثناء ذلك مرَّ الفارس بهما فنظرا اليهِ فاذا هو راهب عائد من احدى القرى البعيدة كان دُعي اليها لعيادة مريض فيها

فقــال لهُ الكهل: يا سيدي لا تتجاوز هذا الحدّ من تَجوُلك فانَّ اللصوص راصدة لك في هذا الخان لتهجم عليك فتعطبك. ان هذا المكان لَعُشٌ من اعشاش الشيطان

فوقف الراهب واعارها اذنًا صاغية فقصَّا عليهِ جميع ما جرى لهما من اوَّلهِ الى الآخر

ثمَّ قال لهُ الفتى: اسرع واطلب لنا الشرَط والدرك فان في الفندق رجلًا غريبًا كاملًا فاضلًا اذا ما تداركتهُ عنايةٌ مخصوصة فتك بهِ هؤلاء القتلة فتكًا ذريعًا

فقال الراهب: ومن هو ذلك الرجل الغريب؟

قال: انما هو كاتب سجلات في احدى القصبات المجاورة

– أصحيح انهُ كاتب سجلات؟ فهو اذن صديقي داود فبــدارِ بدارِ الى انقاذهِ

فقال الفقــير: مهلًا مهــلًا فان لي رأيًا آخر. ان هذا الفتى قد احسن بقولهِ انَّهُ لا بُدَّ من استقدام الضابطة والدرك

فالاولى بك ايهــا الراهب ان تركض جوادك وتنقلب عائدًا الى القصبــة وهناك تُطلع الحاكم على ما جرى

– فاجابهُ الراهب: اني ذاهب للحال

ثمَّ ضرب الجواد بسَوطهِ فكرَّ هذا حتى غاب عن العيان ولبث بعدهُ الفتى يتقلَّب على جمر القتاد وهو يقول: كيف تركتُ ذلك الصديق في ايدي هؤلاء اللصوص وأما كان الاولى بي ان ادعوهُ فيهرب معي. واذا كان بطش بهِ هؤلاء القتلة ألا اكون مؤاخذًا بدمهِ يوم الحساب

فتحرك قلب الكهل الفقير لما رآهُ في الفتى من الحزن الشديد والاسف

الصادق على تركهِ صاحبهُ تحت ضرب السيف فقال: «لا تحزن يا اخي فاني واثق ان الله تعالى شملك وايَّاهُ بعنايتهِ فخلَّصك قبلهُ كي تسعى بنجاتهِ فاشكر الله على انهُ جمع بيننا في يوم امس وربط قلوبنا برباط الحب المتين وهذا يدل على انهُ لا بُدَّ للمرء من اصحاب في كل محلّ يستعين بهم عند وقوع البلوى ويبث لهم الشكوى

وانني وأيمُ الله خفتُ عليك من هؤلاء اللصوص. فقمت في هذه الليلة وغايتي ان اصل الى احدى القرى التي تبعد بعض المراحل من مدينة ليون حتى احضر احتفال عيد يجري فيها غدًا فتناولتُ عصاي وتوكلت على المولى الرحمن وقمت اكدح في هــذا الليل المدلهمّ. لانك تعلم اني لا اخشى امرًا وان لي قلبًا اشدّ من الصخر الاصمّ. ولم اتمالك ان حانت مني التفاتة نحو هذه الخَرِبات اذ توهَّمتُ انك تبيت فيها وخفت ان يلحق بك سوءٌ وقد واصلتَ سيري حتى اصل وقت قيام الصلاة واجتماع الناس لانني أُصيب حينئــذٍ خيرًا من احسان المؤمنين كما اعتدتَ من زمن ولي هناك اصحاب يتحفونني بهدايا نفيسة. وبينما كنت على هذه الحالة من السير واذا بمصباح يتقدم نحوي كأن يد شيطان تحملهُ فلم اهتم بالامر ولم احتفل لهُ ولم يمرّ عليَّ الّا القليــل حتى نظرتُك امامي متهورًا وقد اوشك الكلب ان يمزّقك بانيابهِ ولكن ضربة واحدة بعكّازي هذه جعلتهُ يعضّ التراب ولا يعود يُرعب ابناء السبيل

– حفظك الله ايها الرجل وجازاك خيرًا فانك انت الذي انقذتني من شر الهلاك ولو علمتْ امي بهذا الامر لكانت بذلت في سبيــل شكرك النفس والنفيس

– قصَّ ذلك علينا. ولكن اخبرني الآن كيف تأَتَّى لك ان تتملَّص

من هـذا الفندق المشئوم في هذه الليـلة الهائلة فاني احب ان اضيف حكايتك الى ما في جعبتي من الاخبار

فقام الفتى وقصَّ عليه جميع ما جرى لهُ منذ دخولهِ الى الفندق الى ساعة نجاتهِ. فتعجب الرجل غاية العجب لما ابداهُ الفتى من رباطة الجأش وعلوّ الهمّة

ثمَّ التفت اليهِ وقال لهُ: انك لجدير بكلّ مدح وثناء ايها الفتى فان ما اقدمتَ عليهِ تحجم عنهُ الابطال ولو اصابني ما اصابك لتضعضعت عزائمي وها اني اراك ترتجف من البرد وما عندي سوى لبدي فالتحفْ بهِ يحميك من البرد قليلاً

قال ونزع لبدهُ والبسهُ ايَّاهُ فقام الفتى يعتذر لديهِ ويشكر جميلهُ وما كان من الكهل في تلك الاثناء الَّا ان عمد الى قرعة ملأى شرابًا فأتى بها وقدمها للفتى وطلب اليهِ ان يشرب منها فشرب وشرب الكهل بعدهُ فانتعشا واخذ هـذا يقصّ على الفتى قصةً اشبه بقصتهِ فقال:

ان احد اصحابي من الجنود كان متجوّلًا في بلاد اسبانيـة فاضطرّ يومًا في اثناء سياحتهِ ان يقضي ليلةً من الليالي في منزل كمنزل البغّالين وادخلهُ صاحب المحلّ الى حجرة لم يكن فيهـا من الاثاث سوى صندوق كبير. فحدثتهُ نفسهُ ان يفتح الصندوق ليرى ما فيهِ ففعل فوجد فيهِ رجلًا مذبوحًا فعنـدها عرف ما ينتظرهُ من الويلات وان الموت يرود حولهُ. فخطر لهُ خاطر أجراهُ للحال وهو انهُ نهض واخرج الذبيح من الصندوق ووضعهُ على الفراش الذي كان عازمًا ان ينام عليهِ ثمَّ القى نفسهُ في ذلك الصندوق وردّ عليهِ غطاءهُ ولبث ينتظر القدر المحتوم. ولمَّا قارب نصف الليل دخل صاحب ذلك النزل الحجرة وضرب الميت فزادهُ موتًا وقد

كان في غنًى عن ان يضرب ثانيةً وصاحبنا في الصندوق يذوق سكرات المنيـة لخوفهِ. ولمَّا كان الصباح حضر رجلان وحملا الصندوق وذهبا بهِ فاحسَّ ذلك الصديق انهُ على ظهر راحلة غير انهُ خفي عليهِ المحلّ الذي ينتهيان اليهِ في مسيرهما وما يكون من امرهِ بعدهُ وقد سمع احدهما يقول للآخر: «لا بأس ان نرميهُ في هذا الجبّ العميق» فقلقت نفسهُ من ذلك واضطرب فؤادهُ ولم يتمالك من كظم غيظهِ فضرب الغطـاء فسقط ووثب على الارض وهو يصرخ فخالهُ حامـلاهُ من أرواح الموتى او من الجان فاركنا الى الفرار لا يلويان على شيء. وهما يطلبان من الله ان يتوب عليهما فانهُ التوَّاب الرحيم

ولمَّا اتمَّ يعقوب قصّتـهُ التفت الى الفتى فرآهُ مشغول الفكر فسألهُ عمَّا خامر لبَّهُ فاجابهُ انهُ فريسة الهواجس وانهُ خائف ان يلحق برفيقهِ داود اذًى واطرق حينًا ثمَّ قال: ارى الراهب طال امرهُ وتأخر عن ميعاده

وبينما كان الكهل يسكن جأش الفتى ويخفف عنهُ اثقال الهمّ والكدر واذا بالراهب تراءى عن بعد وحولهُ عشرون او ثلاثون قرويًا حاملين سلاحًا وفي وسطهم حاكم البلد فانَّ الراهب ما صاح بهم: «الوحَى يا اهل الوحى» الَّا لبّوهُ على الاثر. فلمَّا اجتمعوا بالكهل والفتى اقبلوا جميعًا الى فنـدق البغَّالين وسبق اليه مقدَّمة من القرويين دخلوهُ وطافوا فيهِ وهم على حذر من حدوث مكيدة. فرأوا ابواب الفندق مفتوحة فطافوهُ وبالغوا في التفتيش عن صاحبيهِ فلم يقفوا لهما على اثرٍ وقد وجدوا الكلبـة دارا تئن ممَّا اصابها من ضرب العصي وقد كُسر احد ساقيهـا فلم تقوَ على الحركة. فاختلفت الظنون في امرها فقال بعضهم: هربا. وقال آخر: اختبأا. وطفق كل واحد منهم يفتش عنهما في ناحية فوجدوا جميع الحُجَر مفتوحة ما خـلا

واحدة منهـا وهي التي بات فيها كاتب السجلات فدخل عليهِ القوم وهو مستغرق في النوم

فايقظوهُ فاستيقظ مذعورًا وظنّ باديء ذي بدء ان جماعة من اللصوص هجموا عليهِ ليقتلوهُ فقام على حيلهِ وصاح بهم: من انتم وماذا تطلبون

فقال الراهب: نحن لسنا الّا اصحابًا جئنا لانقاذك من خطر عظيم كدتَ تقع فيهِ

— وما هو ذلك الخطر العظيم الذي كدتُ ان اقع فيهِ يا ترى ؟ لعمركم ايها الناس اصدقوني الخبر.. تكلّموا

فنهض حينئذٍ حاكم البلد وقادهُ الى الحجرة التي كانت جُهزت لمبيت الفتى فما رأى الجثة حتى رجع الى الوراء محوقلًا وقد عرف المذبوح فانهُ كان واحدًا من الباعة وكان هو رآهُ منذ يومين

فشرع حينئذٍ داود كاتب السجلات باجراء التحقيق عن الواقعة امام تلك الجماعة فرفع تقريرًا مستوفي الشروط في هذا الشأن وقد اثرت فيهِ هذه الليلة الهائلة تأثيرًا لم يبرح من ذهنهِ طول حياتهِ وعلم العلم اليقين ان لله في خلقهِ آياتٍ وانهُ لولا عنايتهِ الالهيّة لما خلص من مخالب الموت الذي اوشك ان يبطش بهِ

ثمّ بعثوا بعض الرجال الى جهات مختلفة يتعقبون آثار الجاني وشركائهِ حتى اذا ادركوهم احضروهم الى دار الحكومة حتى ينالوا هناك جزاء ما جنَت ايديهم

امّا الفتى فانهُ نال حظوةً في عيني كاتب السجلات فقربهُ هذا اليهِ وقال لهُ: ايها الفتى ان وظيفتي تقتضي ان يكون عندي فتًى مساعد مثلك

وقد اختبرتك البارح فنظرت فيك سمات الفهم والذكاء وآنست منك ظرفًا وادبًا فان شئتَ تشغل هذا المحل عندي اكفل لك النجاح والترقي

فرفع الفتى اكفّهُ نحو السماء وقد اخذتهُ هزّة الطرب والسرور فقال: هذا غاية ما اتمنّاهُ لكنّي لا اقدر ان اجيبك عن هذا الّا بعد مشورة والدتي ولست اظنّها تأبى ذلك

فقال: امهلك ثمانية ايامٍ فيها تذهب وتقابل امك وبعدها تأتي اليّ وانا امتعك بكلّ ما عندي من المال

قال واعطاهُ بعض الدنانير لقضاء حاجتهِ فرجع الفتى الى بيت امّهِ فلمّا رآها قص عليها حوادثهُ وقلبها يتنازعهُ عاملا الخوف والفرح. ثمّ انكبّ كلاهما على الارض يشكران الله تعالى ولمّا انتهيا من صلاتهما قامت الأمّ وضمّت ابنها الى صدرها وهي تذرف الدموع وقالت لهُ :

« ايّاك ايّاك يا بنيّ ان تهمل منذ الآن صلاة العشي يومًا من حياتك لأنّ الله لا يهمل الذين لا يغفلون عن خدمتهِ ». ثمّ ودّع الفتى امّهُ وخدم صاحب السجلّات زمنًا طويلًا بأمانةٍ. وحصل من بعدهِ على ثروةٍ عظيمة ووفّقهُ الله في كلّ أعمالهِ

الشهامة في حب الوطن

طرفةٌ معرَّبة بقلم المعلم الفاضل يوسف ابي سليمان

في آخر الحرب العبوس التي استعرت نارها ما بين الفرنسيس والألمان سنة ١٨٧٠ لمَّا كبا زندُ الفرنسويين وولَّى أمرهم اقبلت فرقةٌ عظيمةٌ شعواء من العساكر الفرنساوية الى قرية من مقاطعة لورّان (Lorraine). وكانت قد انحازت عن العدوّ وهي تسعى جهدها في الانضمام الى معظم الجيش الذي تنحَّت عنهُ وانفصلت . الّا انَّ كثرة الآجام والغابات في تلك الاراضي قد حالت دون مرامهم وسدَّت في وجوههم المسالك والمذاهب فارتعدت لذلك فرائصهم فضلًا عمَّا كان يعتريهم من الخوف والذعر لعدم معرفتهم بقوّات الالمان ومواقعهم . فايقنوا من ذلك بوقوع الواقعة ونزول النازلة

وما وطئت طليعتهم ارض القرية المرقومة حتى اوقف القائد كامب الفرنسي عسكرهُ خارج البلدة واستدعى من هناك أُولي الامر فوجد أنَّ السُّكان وعمال الحكومة قد أخلوها مرتحلين عنها فلم يبقَ فيها سوى

راعي النفوس (الخوري) يقوم بخدمة العجَزة الذين لا قدرةَ لهم على الفرار ولا طاقة لهم بمشقاتهِ الشاقة

فما عتم إذن أن اقبل الكاهن وكان اسمهُ پونتاك (Pontac) على القائد فرآهُ يحدّقُ الى خارطةٍ صغيرةٍ بيدهِ ليتبيَّن تلك الاراضي ويعرف ما فيها من المخارم والمخارج . غيرَ ان صغر الخارطة وما فيها من النقص في رسم الامكنة قد جعل القائد مرتبكًا لا يرى لهُ في امرهِ وجهًا يسلكهُ ولا نهجًا يهتدي اليهِ

فلمَّا حضر الكاهن نظرَ اليهِ القائد نظرةَ يائسٍ خائب الامل لما التمحهُ فيهِ من الهيئة القرويَّة فظنَّهُ غيرِ اهل للقيام بما كانت تنتدبهُ اليهِ مخاطر الحرب وطوارئها

وكان الكاهن ينيفُ على السبعين من عمرهِ وكانَ قصير القامة بادنًا شديد البنية أغلبَ أوقصَ ذا وجه منتفخ ويدين وارمتين ورجلين منعولتين بمداسٍ خشن يتوكَّأُ على عصاهُ كأنَّهُ كلما قام ركع . فقال للقائد: لا تؤاخذني أنا مصابٌ بداء النقرس واني كما تراني من أحقر الناس واذلهم

الّا انَّ القائد الذي كان من النباهة والفطنة بمكان حدَّق الى الكاهن ولم يلبث ان توسم فيهِ حذقًا وذكاء . فانَّهُ كان ذا عينينِ . صغيرتين برَّاقتين . أَوْطفَ . بفمٍ يفترُّ افترار الظرافة والدهاء . وهيئةٍ قرويَّةٍ تدلّ على كرم النفس وسلامة القلب . وذلك ما جعل القائد يرى فيه رجلًا ذكيًّا عبقريًّا حرًّا

وكان القائدُ في عنفوان شبابهِ غيرَ ان الحرب اتعبتهُ واضنكتهُ . فقعدَ على صفَّةٍ وامامهُ دكَّةٌ صغيرةٌ على قارعة الطريق الكبرى فأجلس الكاهن الى جنبهِ والخارطة الصغيرة على مرأى منهما . ثمَّ إن القائد قال

وهو يتبسم استخفافاً بصاحبه: ها إني عازمٌ على عقد مشورةٍ بيني وبينك فيرى كلٌ منا في الحرب رأيهُ

فمدَّ الكاهن يدَهُ الى جيبهِ واخذَ علبة السعوط ففتحها على مهلٍ ثمَّ نشقَ نشقةً عظيمةً فقال جذلًا مسرورًا:

«بودّي أيُّها القائدُ لو أنني أذكرك بأنَّ التاريخ يُرينا في كل عهدٍ ان كنيسة المسيح أنارت مشورات حكام الارض بآرائها الصائبة ونصائحها الصادقة وانها هدَتْ القوّاد والعساكر الى صراطٍ مستقيم... لكنا نحن في موقفٍ حرج. فهات ما عندك في الامر: ما غرضك مولاي؟ من اين انت آتٍ؟ والى اين انت ذاهب؟ أقائمٌ أنتَ للحربِ ام قاعدٌ عنها؟»

فاجابهُ القائد على كل هذه الاسئلة وقد ركن اليه واطمأنَّ. فاخذَ الكاهن آنئذٍ قلم رصاص ورسم على الخارطة خطوطاً فقالَ للقائد:

«انَّ بينكم وبين العدوّ مرحلةً بل مرحلةً ونصف مرحلةٍ فلا يدرككم قبل صباح غدٍ. وعسكرك لغبٌ جائعٌ فان رأى القائد أن يدعهُ يريح يومهُ هذا فليفعل. والحذر الحذر من الاستراحة داخل القرية فانها تحدقُ بها التلالُ والآكام ووراء الاكمةِ ما وراءها. ولكن على خمسة اميالٍ من القرية هضبة مستديرةٌ يكتنفها النهر حتى يكاد يجعلها شبهَ جزيرةٍ وهي كثيرة الخمائل ملتفَّة الاشجار. فهناك تكونون في مأمنٍ من كلّ غائلة

ثمَّ انَّ العدوَّ إن تبع اثركم لا يسلك الطريق اللاحب الذي هو اطول من المقرب (القادومية) لأنهُ لا بدَّ لهُ حينئذٍ من أن يعبر الجسر كما رأيتَ. والبروسيان لا يجسرون على قطع الجسر مخافةَ ان يسقط بهم لو عبروهُ. وعليهِ فأراهم سينحازون عن الطريق المطروقة ويجتازون في

هذه الغابة التي ترى (واشار الى حرجةٍ قريبة من هناك) فلا يبلغون هذا المكان حتى صباح غدٍ

«على اني اعدكم الوعد الصادق ان طلائع العدوّ لا تطلع علينا حتى تسمعوا دقَّ الجرس في كنيستي دقًّا متواترًا. وحينئذٍ ينصرف العشرون او الثلاثون جنديًّا الذين تبقيهم في الضيعة من غير ان يطلقوا بنادقهم طلقًا واحدًا. ولا يكون انصرافهم في معظم الطريق بل في مضيقٍ أدلُّهم عليهِ لئلا يهتدي العدوّ الى موقعكم. امَّا انتم فعليكم ايضاً ان تعدلوا عن السكّة العظمى وتسيروا بميلةٍ الى الشمال من حيث ترون الفندق المعروف بفندق «الفرس الاشهب» وهكذا تأمنون من شرّ الطغاة ويفرق بين القومين النهر الذي لا مخاضة ولا معبر لهُ بتةً. وتحجبكم عن الابصار تلالٌ وآكامٌ فلا يراكم احدٌ سحابةَ يومكم حتى تبلغوا معسكر الجيش الذي تقصدونهُ

«وها انا ادلك على بعض بيوت القرية فتجد فيها ما يضمن لك قوت عسكرك وسائر لوازمهِ. فانا أُقيد كل ما تأخذونهُ وتُعطيني أنت بهِ وصولًا موقعًا بامضائك. ولكن ارجو منك في ذلك تمام النظام ورعايةَ الحرمة لمقتنى الغير. فجميع السكان يساعدون على مصروف الجيش كلٌّ بحسب استطاعته. فإنهُ لَفرضٌ واجب علينا أن نقوم بمعاش من يناضلون عنَّا ويحمونا من غارات العدوّ. هذا وهل يليق بنا أن نضنَّ على اصحابنا الآن بما سيحرمناه العدوّ غدًا نهبًا وسلبًا؟»

ثمَّ انَّهُ وقف غير طويل وقال بعد ان استعط السعوط الطيب:

«هلمَّ الان مولاي مُر لي باربعة انفارٍ من الصناديد الاشداء فيكون اثنان منهم في قبَّة الجرس كرقيبين يرقبان الآفاق ويتتبعانها. واكمنُ انا

والاثنان الاخران في مدخل القرية قرب المعبد العتيق فنكون نحن ثلاثتنا طلائعَ الجيش نوافيكم بالاخبار عن حركات العدوّ . هلمّ اختر لي جنديين يكون لهما جلدٌ وصبرٌ على برد الليل ودفع سِنَة الكرى . أعطني جنديين بطلين منجّذين حنكتهما التجارب . فإنهُ لا علم لي ولا دراية بما سيكون من امرنا هذه الليلة »

قال القائد : بحياتي ايها السيد لا اعدُّكَ الّا بطلًا

فقهقه الكاهن قهقهةً عظيمةً ثمَّ استعان بعلبة السعوط فقال وهو يستعط من سعوطهِ الطيّب :

« ان في مصفّ دُعاة الدين ابطالًا لا عـدد لهم كما انَّ في الثُكن أبطالًا معدودين وشتّان ما بين هؤلاء واولئك . . . ولكن ما لنا وهـذا الحديث . افتعجب ايهـا القائد من حبّنا للوطن او ليس حبُّ الوطن من الايمان »

فمدَّ لهُ القائد يدَ المصافحة مشعرًا باكرامهِ وجعل يرمقهُ بعين الاعتبار . فتبسم الكاهن تبسُّمَ رجل طيّب السريرة سليم الطويّة ثمَّ قال :

« متى اصدرتَ اوامرك ونال كل جندي نصيبهُ من الأكل والراحة أذهبُ بك الى منزلي فتجدُ هناك عُجّةً طيّبةً وفروجًا مقليًا وخمرًا رحيقًا فنجتمع على الطعام تأكيدًا للمودّة والانس »

قال ثمَّ انطلق يتوكّأ على عصًا من خيزران قد ورثهـا عن سالفهِ تذكرةً ثمينةً

ثمَّ ارخى الليل سدولهُ فطال وقرس بردهُ قرسًا . وكنت ترى تحت صُفّـةٍ او سقيفةٍ من عيدان الشجر تقوم على اربعة اعمدة لا جدران لها ثلاثة رجال يتلطّون على العدو خلف حزمٍ من قضبان الزَّرجون وكلّهم آذانٌ

واعيةٌ صاغيةٌ الى اقل حركة وهم يضربون بابصارهم نحو كل جهةٍ . فكانوا ينتظرون العدوَّ في هجعات الليل والعسكر نيامٌ . وكان اثنان من الكمناء في غلواء الشباب من اشدّ الرُماةِ بأسًا واسرعهم إطلاقًا واضبطهم رميًا يستند كلٌّ منهما الى بندقيتهِ . اما الثـالث فكان اشيبَ مجلّلًا متجلببًا بجلباب اسود وبيدهِ ناقوس المذبح وكان يرقب العدوَّ عن بُعد ليدقَّ جرسهُ اذا ما شاهد البروسيان مقبلين وتلك علامة لذَينك الرَّاصدين في القبّة ليدقّا الجرس الكبير دقًّا عنيفًا متواترًا إيقاظًا لسائر العسكر

وكان في السقيفة سكوتٌ عظيم لا يسمع فيهِ سوى رِكز الكاهن الشيخ الذي كان يصلي الى الله صلاةً خاشعة حارّةً . ففي الهجعة الثالثة من الليل قال احد الراميَين : لا ارى هؤلاء الاجلاف يأتون الينـا هذه الليلة . فحريٌّ بنا ان نفرَّ من هنا او نؤوب الى قومنا

ولم تمضِ بضع دقائق حتى وضع الكاهن شمالهُ على كتف الجندي واشار لهُ بيمينهِ الى موضع في اقصى الغابة لا يراهُ الّا الذي منحهُ الله بَصر زرقاء اليمامة . فانهُ على مسافةٍ قريبةٍ من تلك السقيفة كانت خميلةٌ واسعةٌ تحيطُ بجهاتها الاربع اشجار باسقةٌ وتعرف عند اهل تلك البلدة بغابة العين . يذهبون اليها في مخرفٍ يصلح لمرور المركبات . وكان ذلك الطريق اللاحب ليلتئـذٍ فارغًا من المارّة يتمكن البصر الجيّدُ من رؤيتهِ حتى أقصاه

غير أنهُ لم يكُ يلوحُ للجنديين غير اشجار لا حركةَ لها وادغالٍ يتلاعب فيها نسيم الصبح فيُسمع لها حفيفٌ خفيفٌ لطيفٌ

وما زالا يحدّقانِ الى ذلك الموضع وهما لا يريان ما يرى الى ان كلمهما الكاهن همسًا :

— ألا تنظران جيش العدوّ؟ صعّدا فيهم البصر وصوّبا . . ألا انهم ماشون وراء جذول السنديان متسترين . . . لقد وقفوا ليسمعوا . . .

الرامي الاول : — لستُ ارى شيئاً

الرامي الثاني : — ولا انا ارى شيئاً

الكاهن : — انهم يتجمعون واوشكوا ان ينقضُّوا علينا

— ها إنّ قائدَهم يكلّمهم همساً

— لقد آن آنُ الدقّ . . فها انا داقٌّ بناقوسي هذا تنبيهاً لقومنا . . امّا انتما ايهـا العزيزان فانسلّا من هنا وتواريا عن ابصارهم بحفظ الله

الراميان سويةً : — بابي أنتَ وأُمي ! ماذا يحـلُّ بك لو تركناك عرضةً للهلاك؟ لا لا إنّا والله لنمكثنَّ ولنمنعنَّك مما نمنعُ منهُ انفسنا حتى تفنى ارواحنا !

الكاهن : — ولداي ! ما انا الّا هرمٌ قريبٌ من شفا الرمس راجٍ من الله في وجهي هذا خيرًا . . . وامّا انتما فعليكما بالرضوخ لامر القائد الذي يأمركما بالانصراف اليهِ عند قرع هذه الجريسة . فاطيعاهُ ولا تخالفا لهُ امرًا وها أنا لكما مبـاركٌ فاذهبا بسلام

قال فقرع جريستهُ قرعًا سريعًا عنيفًا ولم يكن كارتداد الطرف حتى اجابهُ قرع الجرس الكبير بالمثل

وللحال أُطلقت البنادق وسقطت القنابل وعلت الصيحات وأُصليت نارٌ حاميةٌ سدّ دخانُ بارودها الفضاء حتى خُيـل ان نارًا جهنَّميَّة تلتهم ذلك الحرج التهامًا

فسجد كاهن الله على الحضيض ثمّ رسم اشارة الصليب فصلى لربّهِ هذه الصلاة : « ابانا الذي في السماوات . . . » فاصابتهُ رصاصة فسقط

اما السريّة الفرنساويّة ففرّت في المضيق الذي اشار اليهِ الكاهن في الامس فبلغت معسكر اللواء عند العشاء ولم تخسر وقتـئذٍ من رجالها رجلًا واحدًا

ولمَّا ان ضمَّ القائد فرقتهُ الى سائر العساكر اخبر اميرَ اللواء بكلّ ما جرى لهُ مع الكاهن فقال الامير آسفًا : « يا لهُ من كاهن بطل لقد ذهب شهيد الوفاء لله وضحيّة الحبّ للوطن »

على انّ الكاهن لم يكن قد أُصيب بغير جرح خفيف لم يُخشَ فيهِ من خطر . فنقلهُ الأَلمان على عجلة الى معسكرهم ثمَّ احضروهُ مجلساً حربياً فحكموا عليهِ بالاعدام جزاء خيانتهِ للعساكر الالمانيـة . غير انهم عدلوا عن قتلهِ حرمةً لجلال السن والكبر فقضوا بحبسهِ مؤبدًا

فلمّا قِيد الى المانية اتفق انهُ التقى بالقـائد الذي كان يزعم ان الكاهن الغيور قد مات قتيل الشهامة والمروءة . فلمَّا رآهُ الكاهن دنا منهُ وقال ضاحكًا : كيف وجدت عجّتي؟ فعرفهُ القائد واجاب على فورٍ وعيناه مغرورقتان بالدموع : « سيدي ما انت الّا بطل » . ثمَّ وثب كلٌّ منهما على عُنق صاحبهِ فتعانقا طويلًا »

الشهامة في حب القريب

تعريب المعلم الفاضل يوسف ابي سليمان مدرس العربيَّة

في كليَّة القديس يوسف

اخبرنا من شهد الحوادث المشؤومة التي جرت في فرنسة سنة ١٨٧٠ قال : إنّا لفي اواخر تشرين الاول واذا بشرطيّ على فرس يجري بهِ جريًا حثيثًا قد اتى قريةً من اعمال فرنسة وذهب توًّا الى بيت الشيخ فلم يرَ غيرَ ربَّةِ المنزل حولها ولداها . فعلق يجول في البلدة وهو لا يصادف سوى الشيوخ والنساء والاولاد . فعلم انَّ الرجالَ قد خرجوا يتجسَّسون اخبار الاعداء الذين كانوا منتشرين في تلك النواحي ينهبون كل ما وقعَ تحتَ ايديهم ويسلبون . ولم يُطل الوقوفَ حتى قال:

«ايُّها الناس ألا إني اتيت من قبلِ قائدي ببلاغٍ رسمي لشيخ المحلّ ومن حيث انهُ قد خرج مع بقيَّة الرجال فهاكم البلاغ : انَّهُ في هذا النهار ستجتازُ في قريتكم فرقةٌ عظيمة من العساكر فاياكم ان تُخالطوها في شيء لأنهُ قد فشا فيها داء الجدريّ فاذا مرَّت بكم ستضرب المضارب في محلّ منفرد تجعل فيهِ مستشفيات لكل من أُصيب بهذا الداء المشؤوم . فمن شاء ان ينجو من شرّ هذا الضيف الثقيل فليفعل بموجب هذا البلاغ ومن آثر الموت فليخالفهُ والسلام » . ثمَّ سار في حال سبيله

فما اتمَّ كلامهُ حتى شملَ الناس الذعرُ والخوف فثارَ ثائر البعض وطفقوا يلعنون الجنود ويسبُّون العساكر . وكنت ترى السُّكان باسرهم يتجمَّعون جماعاتٍ جماعات ويتداولون في مسئلة الوباء الموبق . ثمَّ ما لبثوا ان هرعوا الى بيوتهم وفي قلب كلٍ خوفٌ ووجلٌ

وما دخلوا البيوت حتى رأوا عن بُعْد فرقة الجند قادمين البلدة فاشتدَّ قلق السكَّان وعلت الصيحات : يا للداهية الدهياء ! جاء المجدورون ! جاء المجدورون !

وللحال اغلقوا الابواب فصارَ سكوت ولا سكوتَ المقابر في ليلةٍ قمراء . فوصل العسكر رويدًا رويدًا والكلُّ رؤوسٌ منكَّسةٌ وعيونٌ دامعةٌ وقلوبٌ هامعةٌ يجرُّون ارجلهم جرًّا لشدَّة التعب وثقل الوباء . وكانوا في غاية الترتيب والنظام فلم يقرعوا بابًا قطّ ولا انحاز احدٌ منهم عن صفِهِ بل كانوا يلتفتون الى حواليهم حينًا بعد حين والأسف ملء القلب ملء الصدر لما غَشيهم من القنوط وخيبة الأمل . فناهيك بهِ من مشهدٍ يفتِّتُ الاكبادَ ويمزّق القلوب !

وما زالوا سائرين سيرًا بطيئًا حتى قطعوا المنازل وجاوزوها . الَّا انهُ لمَّا انتهى ساقة العسكر الى آخر بيتٍ سقط على الحضيض بين ايديهم جنديٌّ قد ضعفت قواهُ وانتقص عَدْوهُ فلم يعد يستطيع أن يخطوَ خطوةً واحدةً . فاخذ المنكودَ الحظّ رفاقُهُ ووضعوه على عتبة ذلك البيت وانصرفوا . فاخذَ هو يقرعُ الباب عبثًا ولا يقوى على النطق بحلوةٍ ولا مرّة لشدّة ما اصابه من الألم المؤلم

ولمَّا توارى الجيش عن العيان فتح ربُّ البيت الباب وخرج هو وحليلتهُ وابنتهُ وحملوا الجندي بين ايديهم ونقلوهُ من هناك الى الجادَّة العظمى

وألقوهُ تحت سنديانة طويلة الأغصان كثيفــة الافنان وكرّوا راجعين أسرع من البرق فدخلوا المنزل واغلقوا البـــاب واوصدوهُ

وكان احد الضبـــاط قد عادَ الى القرية ليُطلع شيخ المحلَ على أمر جليل . فاتفق أنهُ لقي في طريقــهِ خادم الرعيَّة (الخوري) راجعاً من سفرة لقريةٍ قريبــة ولا علم لهُ بشيء مما حدث . فاخبرهُ الضابط بسوء الحال وشؤم المصير والحَّ عليهِ ان يُعلم الشيخ بامر المريض المدنف

ثمَّ ان الكاهن انطلق في اثر الضــابط ليطلبا الجندي المصاب حتى اتيا جميعاً ذلك الموضع فلم يجدا لصاحبهما اثرًا . فتولاهما الاندهاش واخذ منهما الذهول مأخذهُ . ولم يكن كطرفة عين حتى فتح صاحب المــنزل نافذةً تشرف عليهمـــا فاطلَّ منها رأسهُ وأومأ اليهما أن « ضالتكما تحتَ الشجرة الكبرى بجانب الطريق » وخفَّ فاطبقَ النــافذة . ثمَّ انصرف الضابط وعاد الى فرقته

أمَّا الكاهن فنحـــا نحو الشجرة وهو يحدق حواليهِ فلا يرى شيئاً ويُصغي فلا يسمع ركزًا كانهُ ماشٍ بين قبور دائرة او منازل دارسة

فبلغ الشجرة المشار اليها فوجدَ الجندي المجدور في حالةٍ تفتتت لها كبدهُ شفقةً وحنانًا . ثمَّ جعلَ يضربُ ببصرهِ يمينًا ويســارًا لعلَّ طائر بصرهِ يقع على رجلٍ يعاونهُ على نقل هذا المسكين الى بيتــهِ . فما كان يلوح لهُ غيرُ تمايل الأغصـــان ولا يطرق أُذنيه سوى حفيف النسيم كأن الضيعة قد اصبحت قاعاً صفصفاً لا يأويها الَّا البوم والغربان

ثمَّ إنهُ انحنى نحو ذلك الجندي المنحوس الطالع وجسَّ نبضهُ وقلبه فألفاهُ حيًّا يدقُّ قلبهُ دقًّا خفيفاً . فأنهضهُ من الارض واخذهُ بين ذراعيــه وضمَّهُ الى صدرهِ ثمَّ حملهُ وسارَ بهِ حثيثًا حتى اتى منزلهُ وهو لا يكادُ يعي

من شدَّة ما لحقهُ من التعب . فأضجع المحتضَرَ على فراشهِ الخاصّ وصلى الى الله صلاةً قصيرةً حارَّةً يلتمس نجاتهُ

وما نشبَ ان دخلت عليه العجوز قيمة المنزل وهي تتحوَّى كالأفعى فصاحت : مولاي لقد اضطربت الرعيَّـــة . . . ولولا اعتبار الناس لك وإجلالهم لشخصك لهاجوا وماجوا واحدثوا من القلاقل والبلابل ضروبًا والوانًا . فإنهم حانقون حنقًا لزعمهم أنَّك جئت الى دارك بجنـــديٍّ لا يلبث ان يسري دفين دائه الى سائر الناس فيفتك بالسكان فتكًا ذريعًا . فويلًا لنا ! ألا تسمع الصيحات ؟ ألا تعبأُ بالتهديدات ؟ إن القوم يكتنفون البيت . فيهلكوننا لا محالة !

فقال لها الكاهن بهدوٍ وسكينــــة : « سكّني روعك وان خفتِ على حياتكِ فاتركيني هنا وحدي وسيري الى احد الجيران واقيمي عندهُ بضعة أيَّام لنرى ما يكون من امر هذا التعيس . ولا توافيني غيرَ مرتين في النهار كل مرةٍ تأتيني بالطعام الى الرواق الاسفل لا غير . ولا يدخل عليَّ من احدٍ سوى الطبيب . ولستُ أخشى من خطر العدوى لانَّ الدار منفردة تحدق بها الحديقة فتجعــل هواءها نقيًّا طيبًا . فكوني انتِ مطمئنــةً . وقد كتبتُ الى خادم القرية المجاورة ليقوم مقامي في خدمة الرعيَّة ريثما يفرجنا الله . فارسلي لهُ هذه الرســالة وابعثي هذه الرقعة الى الطبيب النطاسي ب . د . . . سيري رافقتك السلامة . . » فخرجت العجوز من عندهِ تقضي ما امرها بهِ وهي تدندنُ وتثرثر

ثمَّ ان كاهن الله انطلق حتى اتى دارَ الشيخ حيث اجتمع ابنـــاء رعيتـــهِ زرافاتٍ زرافات . فلما اقبلَ عليهم ودنا منهم بُهتوا وتقهقروا مذعورين مرعوبين . فحينئذٍ رفع يمينهُ واشار الى ثلاث كلمات مرقومة في

وجه الدار فجهر صوتهُ فيهم قائـلًا: أفلا ترون ما سُطِرَ على باب دار شيخكم؟ الحريَّة! المسـاواة! الإخاء! أوَ لَسْتُ بمُجزٍ في مساعدتي للقريب؟ أفا هذا الجندي التعيس بمساوٍ لي في الجنسيَّة؟ أوَ لسنا احرارًا بان نخلّصهُ من أظافر المنيَّـة رعايةً لحقّ الاخاء؟ فاين علامات إشعاركم بحرمة الاخاء يا ذوي الالباب؟ ومتى عهـدتُ قلوبَ اخوتي الفرنسيس منحوتةً من الصخر الأصم؟ امَّا أنا فلست بناسٍ انَّ الراعي الصالح يبذلُ نفسهُ بدلَ نعجةٍ واحدة تضلُّ من قطيعهِ

فقال بعض الحضور بهزء: لكن هذا الجنديّ ليس من ابناء رعيتك

فاجاب الكاهن وقد لعبت برأسهِ حميًّا الشهامة والحماسـة: « اليوم رعيّتي فرنسا التعيسة بأسرها... ان ابناء رعيّتي هم كل هؤلاء الجنـود الذين يموتون في حومة الوغى مدافعةً عن حياتكم يا أشباهَ الرجال. واعلموا أنّي انا لا أدَع هذا المسكين يموت في قارعة الطريق بل افديهِ بحياتي »

ثمَّ انهُ انطلق الى منزلهِ ففرش فرشه وسوَّاهُ جيّدًا وأرقد المريض فيهِ وشرع يعالجهُ بجميع العلاجات الواقية التي كان يعرفها اذ ان للكهنة عادةً بعض إلمام في علم الطبّ وربّما كانوا من الأُساة المشهورين الموثوق بهم. ثمَّ حانت من الكاهن التفاتةٌ فرأى مُذكِّرةً (دفترًا صغيرًا) قد سقطت من جيب الجندي. فتناولها وقرأ عليها ما نصُّهُ: « يوحنا الحرَّاث من اعمال فرنسا ولد في ١٣ حزيران سنة ١٨٤٩ »

فادنى فاهُ حينئذٍ من أذن الجندي وقال: « حبيبي يوحنا... يوحنا حبيبي... اجبني... »

فتنهَّد المحتضَرُ تنهُّدًا خفيفًا مشعرًا بانهُ لم يزل في قيد الحياة...

فسجد الكاهن على ركبتيه واخذ يصلي والدموع تتناثر من مآقيهِ

وفيما هو يصلي فتح يوحنا عينيه وردّدَ طرفـهُ في اطراف المقصورة وتنفس الصُّعَداء قائلًا: أمَّاه

فقال الكاهن: « ليس لكَ من أمٍّ ههُنا... وانا ابوك اقوم عندك مقام أمٍّ انت قصيٌّ عنها » قال هذا واستحرَّ بالصلاة لاجل المريض

وبينما كان الكاهن يصلّي والعليل شاخصٌ الى صليبٍ أمامه إذ فُتح البـابُ ودخل الطبيب. ففحص المريض فحصًا مدقّقًا ثمَّ قال للكاهن همسًا: « إنَّ مرضهُ عضالٌ معدٍ. ولا بدَّ لهُ من مُمرِّضٍ يقوم بخدمتهِ غيرَ ان معشر مواطنيك يسعون في إخراجهِ من بين المنازل وان اخرجوهُ خرجت روحهُ قبل ان يبلغوا بهِ آخر الضيعة

الكاهن: — وان بقيَ هنا هل من رجاء في شفائهِ؟

الطبيب همسًا: — لا يُنجيه من مخالب المنيَّة الّا المعجزة

ثمَّ انصرف الطبيب وبقيَ الكاهن ساهرًا على ذلك المنكود الحظّ اربعين ليـلةً واربعين يومًا من غير ان يضطجعَ في فراشٍ بل كان جالسًا قبالهُ على كرسيٍّ ليلَ نهارٍ الى ان زالَ عنهُ الخطر وابلَّ من مرضهِ ونقه بمعجزةٍ الهيّة

والاغرب من ذلك أنَّهُ لم يُصَب في كل القرية الّا ابنـةٌ لذلك الرجل الذي لم يشفق على من طُرح على عتبة بابهِ من ابنـاء جلدته ونالهُ ما نال في سبيـل الدفاع عن وطنهِ فاشتدَّت عليها وطأة الداء حتى افقدتهـا حُسنها وجمالها وصيرتها من اقبح الناس صورةً. فكأنَّ الله قد سمح بذلك وأبى الّا حياتها عبرةً لمن يعتبرون وموعظةً لمن يتعظون

ولمّا ان شفي الجنديُّ تمامَ الشفاء تقدم من الكاهن مخلصـهِ وخرَّ

جاثيًا على قدميه وطفق يقبّل يديه ويبلها بدموع الشكر وعرفان الاحسان ثمَّ قال: « ابتِ الجليـل ألتمس منك ان تفسحَ لي في العود الى أُمي لاراها لحظـةً قبل ان انضمَّ الى الفرقة التي انفصلت عنها »

فتأثّر الكاهن الغيور غايةَ التأثير وبارك حبيبه يوحنا وسلّم اليهِ رُقعةَ عطلةٍ كان قد استمدَّها لهُ ودفع اليهِ رسالةً من امّهِ ولم تكُ عرَفت بمرض ابنها ومُصابهِ أصلًا

فخرج صاحبنا يوحنا من عند راعيه وحاميه وكُلّه لسانٌ ينطق بجميل الثناء على من ردَّ عليهِ حياته او كادَ

وبعد أيام قلائل خلتْ صادفَ الطبيبُ الكاهن فقال لهُ: أَوَ كُنت تدري سيدي بانك تعرض نفسك للهلاك المؤكد بايوائك لرجلٍ أصابه داءٌ دفينٌ عضال ؟

قال الكاهن: كنت اعلم ذلك حقَّ علم ولكنني ما كنت لأنسى أنَّ الراعي الصالح ينبغي لهُ أن يبذل نفسهُ دون رعيتهِ

*

على انَّ هذا الراعي الصالح المذكور لم يبذل نفسهُ دون خرافهِ في هذهِ الدفعة فقط. فما مرَّ عليهِ عشرة ايّام مذ أبلَّ الجنديُّ المجدور وعاد الى وطنهِ سالمًا شاكرًا للكاهن مخلّصهِ حتى اصاب القرية داءٌ اثقل من الجدريّ. فانَّ العدوَّ كان يقترب من القرية بخيلهِ ورجلهِ لا يبقي ولا يذر

فتصدّت لهُ في طريقهِ شرذمة من الفرنسيس والتحم القتال بين الفريقين فعلا الصراخ ودوت المدافع كالرعد القاصف وتساقطت القنابل

على الارض كالبرَد وحجب دخانُ البارود الحالك عينَ الشمس

ففي تلك الاثناء كان اهل القرية يذوقون الموت وينتظرون من دقيقة الى اخرى قدوم العدوّ لا يعرفون ما سينالهم بورودهِ من الويلات. ولم يكن الكاهن الغيور السابق ذكرهُ ليهملهم في ساعة المحنة بعد ان ضحّى نفسهُ لاجل جندي غريب. فجمع الرعية في الكنيسة واخذ يقوّيها ويوطّد آمالها

وما عتّم ان عزفت ألحان الحرب ولا عزيفَ الجنّ واذا باشباح كانها من قوم العمالقة لاحت منحدرةً في تلك الاودية لا عدَّ لها ولا عديد وهي لا تلوي على شيء. حتى ادركهم الليل

فامر حينئذٍ المشير ان يأخذ الجند نصيبًا من الراحة تلك الليلة قبل مواصلة السير الى الامام فأقام لذلك الحرس من الجهات الاربع فكانوا يطوفون حول الجيوش متيقّظين كلهم آذان تسمع وعيون تبصر لئلا يبغتهم باغت او يكمن لهم كمين

على انَّ العسس مع ما كانوا عليهِ من التحفّظ لم يتمكّنوا في جوف الليل من نظر بطلين في عنفوان الشباب كانهما أسدان برزا من مكمن واحدٍ فاخذا يجولان ويفرّان من وهدةٍ الى وهـدة ومن دغل الى دغل ومن عوسجـةٍ الى عوسجةٍ حتى دنَوا من ذلك المعسكر فأطلقا النار اربعًا وكرّا على اعقابهما كالبرق وهما يزأران ولا زئير السباع

وكانت بنادقهم رمت منهم ثلاثة أصابهم الرصاص في صدورهم فاصماهم امّا الطلق الرابع فانّهُ أصاب ضابطًا في امّ رأسهِ فأطار لهُ قبعتهُ وفلق فلقةً من هامتهِ فخرَّ وهو يصيح: دونكم بنادق الصيد ذوات الطلقين. وللحال أطلق العـدوّ على هذين البطلين نيّفًا وعشرين طلقًا فدوى

الرصاص في آذانهما وسقط حواليهما ولم يمسّهما من ذلك شبهُ اذًى

ولمّا كان الصباح انطلقت كتيبة في طلب الجانيَين متوجهةً الى القرية فصادفوا عند مدخلها ستة رجال من اهل المحلّ فقبضوا عليهم وساروا بهم الى شيخ الضيعة وكان ضابط الجند رجلًا جلفًا فقال للشيخ: « انت هنا صاحب الامر والنَّهي. إذن انا آتٍ اليك من قبل مولاي لاعلمك انَّهُ قد أُطلقت النار على جنود جلالته اربع طلقات. فاخترْ امّا ان تدفع الينا أصحاب الجريرة فنقتلهم بمن قُتل من اصحابنا وامّا ان نقتل ستة رجال صاروا في حوزتنا وقبضتنا ليكون ذلك عبرةً زاجرةً. ونُفسح لك في الجواب الى ظهر غدٍ. واعلم ان ضيعتك قد اصبحت تحت الحكم الحربيّ ». ثم تحولوا من هنالك يبحثون عن موضع يجعلونهُ مقتلًا

فاضطرب الاهلون وارتعدوا واخذت النساء تصيح وتنادي بالويل والثبور وطفق الرجال يلتمسون النجاة ممَّا وقعوا فيهِ فلم يجدوا لهم مفرًّا من وجه العدوّ الذي كان قد دار بالقرية من اربع جهاتها. فتجمعوا في دار الشيخ وقضوا ما بين الصيحات والزفرات انَّهُ لا بُدَّ من تسليم الذين اوقعهم القدر بين ايدي الاعداء لانَّ الجانيَين لم يكونا من قريتهم ولم يكُ لاحدٍ معرفة بهما

هذا ولمَّا يئسوا وحبطت منهم المساعي قضوا ذلك النهار ينوحون ويولولون ويتقلَّبون على جمر الغضا متوقعين شرّ المُنقلب

على ان الشيخ والكاهن وبعض أوجه الضيعة ذهبوا الى امير الكتيبة وتوسّلوا اليهِ ان يعفوا عنهم مبيّنين لهُ ان الاهالي براء لا يعرفون الغدر فلم يسمع لهم مقالًا. ثم اقبلت النساء نائحاتٍ باكيات وانطرحنَ على قدميهِ

متوسلات فردّهنَّ خائبات وأَبى الَّا الانتقام واعتذر انهُ مأمور يقوم بامر مشير الفيالق الملكيَّة

غير انهُ قال للكاهن: « قد سمحتُ لك ان تدخل على الاسرى واطلقت لك الحرّية في استعمال كل ما تراهُ مناسبًا من امور دينك واسرارهِ »

فانطلق الكاهن الغيور على وجههِ حتى اتى دار الشيخ حيث كان المساكين محبوسين في الطبقة السفلى. فدخل عليهم فوجدهم في حالة يبكي لها الصخر ويذوب الجلمود. فانهم كانوا مشدودين وثاقًا من ايديهم وارجلهم بحبل واحد وكان اثنان منهم مغميًا عليهما والثالث مُصابًا بحمّى نافض تُرعدهُ كالورقة في مهبّ الريح والرابع والخامس صابرَين على نكبات الدهر وامّا السادس فكان يظهر جَلودًا طلق المحيا ثابت الجنان كأنهُ لا يُبالي بما سيتزل بهِ وكان يناهز الاربعين من عمرهِ لهُ خمسة صبيان ايتامُ الامّ هو عضدهم الاوحد. فشرع الكاهن يُظاهرهم على الرزيَّة ويضافرهم على البليَّة ويعزيهم باسرار الديانة المسيحيَّة ويحثهم على الصبر ويذكرهم باجر الصابرين. فسمعوا لكلامهِ ورحضوا نفوسهم بسر التوبة. الَّا السادس منهم فانَّهُ اظهر في اول الامر غاية الصبر والجلد باصغائهِ الى اقوال كاهن الله الوقور. لكنَّهُ ما لبث ان قنط وأخذ منهُ اليأس مأخذهُ فهبَّ يجدّف ويقذف من الشتائم افظعها ويلعن الطبيعة برمَّتها. ثم انتقل من اليأس الى الحزن والتفجُّع فبكى صبيتهُ طويلًا. ثم عاد الى القنوط فطفق يلعن ويقول: « سرْ ايها الكاهن وائتني ببنيَّ الخمسة لاموت واياهم بجريرة غيرنا فان يموتوا فرائس الظلم والنار خير من ان يموتوا فرائس الجوع والعار »

فلماَّ يئس كاهن الله من تضميد جراحهِ وتسكين روعهِ ووضع السلام في قلبهِ. خرج من السجن ومشى حتى اتى موقف الكتيبة فاستأذن اميرها بالكلام فاذن لهُ. فقال وهو رابط الجأش يلتهب قلبهُ التهاباً بنار الغيرة والحميَّة :

« ايها الضابط لقد ساق اليك القدر ستة رجالٍ من ابناء رعيَّتي فاسرتَهم وحبستهم وعن قليل تميتهم ولا ذنب عليهم. انما تنكّل بهم بجريرة غيرهم لان الجانين فعلوا ما فعلوا ولاذوا بالفرار. وانما تُنزل بنا هذا العقاب الصارم تأديباً لغيرنا واذ ذاك فلا فرق عندك ان قتلت زيداً وعفوت عن عمرو او اهلكت هذا وصفحت عن ذاك. وانا ارى انَّهُ مهما كان الرجل منَّا وجيهاً مقدَّماً في قومهِ مشمولاً عندهم بالكرامة كانت العقوبة أزجر وانفع. والان ايها الضابط لقد اتيتك ملتمساً منك ان تعفو عن رجلٍ بموتهِ يموت صبيتهُ الخمسة وتقبلني بدلهُ في عدد الضحايا. نعم اننا كلينا بريئان غير انَّ في قتلي عبرة اردع وانجع »

فاجاب الضابط : لا بأس من ذلك فحياتك بحياتهِ

ومن ثمَّ قادهُ اربعة انفار الى السجن ففكُّوا ذلك الرجل ابا الخمسة الصغار وقيَّدوا الكاهن مكانهُ فقضى وبقيَّة السجناء بقية ذلك النهار والليل الذي وليَهُ

امَّا ما قاساهُ هؤلاء المنحوسو الطالع من الاوجاع وما تجرَّعوهُ من المرارات سحابة الليل فحدّث عنهُ ولا حرج. غير انَّهُ ما ادبرت النجوم وطلع الفجر حتى كان ذلك الشهم قد احيا في قلوب ابنائهِ روح الشجاعة وصيَّرهم شهداء لا يرجون غير اكليل الشهادة تتوَّج بهِ مفارقهم يدُ ابن الله الفادي

وعند الظهر اخرجوهم وشيَّعوهم نحو الموضع الذي اعدُّوهُ لاعدامهم. ففتح رئيس الشهداء كتاب الصلاة وجعل يتلو فرض الموتى وهو في مقدَّمة اصحابهِ والسكَّان سُجَّد منقسمون الى صفَّين ينظرون الى ابيهم نظرة الوداع ويذرفون الدموع السخينة

وما كادوا يبلغون بهم المقتل حتى اتفق ان مرَّ قائد الفيلق الذي انفصلت منهُ تلك الكتيبة فلماَّ رأى الكاهن مسوقاً الى القتل تعجب وحار في امرهِ فامرهم بالوقوف يسيراً فوقفوا

ثمَّ اختلى بالضابط واستفهمهُ فاخبرهُ بكلّ ما جرى بينهُ وبين الكاهن والشيخ والرعيَّة فاستعظم القائد الامر واستفظع الفعل فامر بتأجيل مقتلهم وارسل فاعلم المشير الاكبر الذي كان عاقلاً رزيناً فامر هذا باحضار الكاهن اليهِ

فلماَّ حضر قصَّ عليهِ القصة باوجز عبارة فسمعها وهو يعجب من غيرة الكاهن وجراءتهِ وبسالتهِ. ثم قال لهُ : « ليس علينا ايها السيد من حرج في قتلك ولست انا قادراً على استثنائك من غيرك لكنَّني لا اريد موتك. فسِرْ وقل لابناء رعيَّتك انني قد برَّأت ساحتهم وعفوت بسببك عن المحكوم عليهم جميعاً ولا تعودوا الى مثل هذا من الآن فصاعداً ».

فاثنى على المشير وقفل راجعاً الى قومهِ يبشر رفاقهُ بالعفو عنهم

فلماَّ توارى عن العيان قال المشير لاصحابهِ : « لو كان عند سائر الفرنسيس ما عند هذا الكاهن من الشجاعة والشهامة لكنَّا غادرنا هذه الديار بصفقة الخائبين »

فهرس